

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الثالث والعشرون

تأليـــف:
فضيلة الشيخ / محمد الصادق ابراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

غزوة بدر نموذج خالد لتطبيق منهج الرسالة

وغزوة بدر كانت وما تزال أول وأعظم نموذج وضع فيه المنهج الإلهي الذي جاءت به الرسالة الخاتمة الخالدة موضع التطبيق العملي الذي لا يختلف باختلاف الزمان والمكان والأجيال والأفكار، والذي لا تتحكم فيه القوة المادية وحدها مهما كانت وأينما كانت.

وبتطبيق هذا المنهج الإلهي كانت غزوة بدر المثل المضروب لإعلاء شأن الكلمة الطيبة، كلمة الله الحق المبين وإسفال الكلمة الخبيثة، كلمة الشرك والوثنية، دون أن يكون للقوة المادية التي يملكها المجتمع المشرك الوثني منفذ لإنقاذ مجتمعها من البوار.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (إبراهيم: ٢٤ -٢٧)

الفريدة الخامسة
تجاذب الإيمان والعاطفة البشرية
يتمثل في نموذج الإيمان

موقف أبي حذيفة بن عتبة وهو يشهد نهاية أبيه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ (التوبة: ٢٣)

كان موقف أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة في بدر محفوفًا بشدائد الأزمات النفسية العاتية التي يمتحن الله بها خواص عباده المؤمنين من طلائع السابقين الأولين، ليمحص بها إيمانهم ويستخلصه من شوائب موروثات الجاهلية التي كانت متمكنة من قلوب وعقول المجتمع العربي، ولا سيما مجتمع مكة الوثني الجاهلي، المغلف بظلمات الشرك والطغيان، والعتو المستكبر، والفجور العنيد.

ومن ثَم كان لهؤلاء السابقين إلى ساحة الإيمان بالرسالة الخاتمة الخالدة منزلة فاقت كل منازل المؤمنين من المتقدمين والمتأخرين، في سموها وعلو مكانتها في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الحياة، لما كان يحتفُّ بها من العقبات الكأداء، والمعوقات البئيسات التي لا يتخطى حواجزها إلا من صفت نفسه صفاء لا تكدره نوازل المحن، ولا تقف في سبيله كوارث البلاء.

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة واحد من أبناء ذروة الشرف والمكانة في قريش، دلف إلى الإسلام في مشرق فجره، متعززًا

بمكانته من هذا الشــرف الجاهلي، لم تدفعه إليه رغبة من رغائب الدنيــا، التي لم تكن القلــة القليلة الحافة برســول الله ﷺ تملك منها شيئًا، يجذب إليها من يريدها.

بــل إن هــذه القلة القليلة من طلائع الســابقين كانت تعيش في حرمــان مدقــع، وبلاء مضن، تُطــارد من داخل بيوتهــا، وتضطهد فــي خارجهــا، وتؤذى أينما كانت من أرض مكــة، إذا أصبحت فلا تدري كيف تمســي، نهارها كليلها، وشــبعها كجوعها، ليس لها معتصم إلا الصبر، تتجرع مرارته ولا تكاد تسيغه، تتوقع البلاء في كل لحظة يأتيهــا من كل مكان، وتترقب العذاب يُصب عليها من كل جانــب، فلا الموت يأتيهــا ولا الحياة تصفو لها، وهي في هذا الترقــب لا فوق لها ولا تحت، فمن يدلــف إلى صفها ليكون منها فعليه أن يعد نفســه للإيمان المحفوف بكل محنة من محن الدنيا وبلاياها.

كذلــك كان أبو حذيفة في إيمانه، أســلم -رضي الله عنه- قبل أن يدخل النبي ﷺ دار الأرقم مستتســرًا بدعوته، متخفيًا بمن معه ممن اتبع هداه، ليقيهم بعض ما يمكن توقيه من عاتيات طواغيت الشــرك وعبيــد الوثنية الفاجــرة الذين كان فــي طليعتهم عتبة بن ربيعة والد أبي حذيفة يحف به إخوة أبي حذيفة وعمومته وشــراذم عشيرته من بني عبد شمس.

وكان عتبة بن ربيعة أحد حملة لواء المعارضة لدعوة النبي ﷺ، ولكنه كان أحد عقلاء الجاهلية ومســاند الشرك، ودعائم الوثنية،

لـم تكن له سـفاهة أبي جهل ولـؤم فجوره، ولم يكـن له انحطاط عقبة بن أبي معيط ووضاعة نفسه، ودناءة طبعه، بل كان يتنبل في قومـه[١]، ويتعاقل في معارضته لدعوة الحق والهدى والنور، وكان عتبـة يظهر من مواقف السـلم والمسـالمة ما جعله سـفير قريش الناطـق بكلمة ملئها في محاورة النبـي ﷺ، ليثنيه عن دعوته إلى الله بالترغيـب في مفاخر قريش الجاهلية التي هي فيها متقلبة بين تنفسات الشياطين.

ولكن رسـول الله ﷺ سمع منه وأسمعه، وأباءه إلى ملأ قريش بوجه غير وجهه الذي ذهب به إليه من عندهم[٢]، فهو قد ذهب إلى النبـي ﷺ بوجه المفتون بغروره المتنبل باسـتكباره، المتنفج[٣] بتعاقلـه، وعـرض على رسـول الله ﷺ ما في جعبته مـن تلمظات البطـون المتكرشـة، والعقول المنفوشـة، والمـدارك الخاوية إلا مـن تجشـآت المكـر الأبله الذي تعيـش قريش فـي حمأته، وهي تترنـح متهاوية متهالكة بعنجهيتها وطغيـان ملئها انتظارًا ليومها الموعود.

وكان رد النبي ﷺ على غرور عتبة أن قرأ عليه أسـطرًا من نور الحق الذي أنزله الله عليه ليخرجهم ويخرج الحياة كلها معهم من ظلمات الجهل الجاهلي إلى نور الحياة الفاضلة العليمة المهذبة.

---

(١) تنبل الرجل عظم وصار من النبلاء. (المجلة)
(٢) باء: رجع. وأباءه: أرجعه. (المجلة)
(٣) المتننفج: المتكبر. (المجلة)

ومرت المرحلة المكية على الدعوة إلى الله وتوحيده، وخلع الشركاء والأنداد بشدائدها وأزماتها وقسوتها وبلاياها واضطهاداتها وفنون تعذيباتها التي يصبها طغاة ملأ قريش على المؤمنين، وفي هذا الجو الخانق ظل أبو حذيفة بن عتبة راسخ الإيمان، قوي العزيمة، مطهر العقيدة، نقي السريرة، وكان من ذوي الهجرتين: الهجرة إلى الحبشة، وفيها وُلد له ولده محمد بن أبي حذيفة، ولمّا عاد إلى مكة مع العائدين من مهاجري الحبشة أقام مع النبي ﷺ ملازمًا له على شظف العيش وقسوة الحياة حتى هاجر إلى المدينة المنورة فيمن هاجر إليها، وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وكانت بدر أول وأعظم مشاهده، وكان فيها جنديًا من جنود الله، أهل الفضل وذوي السابقة الذين كتبت لهم فيها العناية الإلهية سجلًا من النور، تخطوا به حواجز الأسباب، ومزقوا به حجب مواريث الجاهلية، ورضوا بالإسلام دينًا، وبالصبر على لأواء المحن معتصمًا، حتى أدال الله لهم من طواغيت الكفر، وطغاة الشرك، وعبيد الوثنية، فنصرهم في أول معركة بين الحق وأهله، والباطل وحزبه، قتل فيها أشراف الملأ وصناديدهم[٤]، وأسر فيها مَن نجا من القتل منهم، وكان عتبة بن ربيعة والد أبي حذيفة من أول قتلى المشركين، وقُتل معه أخوه شيبة وولده الوليد في المبارزة التي جندلهم فيها أبطال جند الله: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث الهاشميون.

---

(٤) الصناديد جمع مفرده صنديد وهو السيد الشجاع. (المجلة)

ورأى أبو حذيفة -رضي الله عنه- أباه عتبة يُسحب إلى القليب مع مَن أُلقي في هاويته من قتلى المشركين، فتجاذبه إيمانه برسوخه وقوة يقينه، وعاطفة البنوة بحنانها وذكرياتها، فوقر الإيمان في قلبه لا يحول ولا يتحول، ومشت العاطفة بحنانها ومشاعرها إلى ذكرياته تثيرها قوية جامحة، وتمثل له أباه في فضله وشرفه بين قومه حتى امتلأت نفسه بهذه الذكريات ممتزجة بما كان يرجوه لأبيه من الهداية إلى الإسلام، ولكنه رأى أباه تغلب عليه العصبية الجاهلية الحمقاء، فتباعد بينه وبين الإسلام وهدايته، فيقتل كافرًا، ثم هو ذا يُسحب إلى القليب في صورة لم ير لها أبو حذيفة إطارًا يضعها فيه إلا مظهر حزنه واكتئابه الذي كسا وجهه لونًا معبرًا عن مشاعره التي اعتلجت في مداخل نفسه، ويراه رسول الله ﷺ حزينًا مكتئبًا، متغير اللون والسمة، فيشفق عليه، ويقول له ليرده إلى شفافية الإيمان وإشراق نوره «يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟» فيجيب أبو حذيفة -رضي الله عنه- وهو يمضغ مرارة حزنه ليلقيها مع أبيه في القليب بنظرة مودعة يائسة آسفة: لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأيًا، وحلمًا وفضلًا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيرًا.

ويذكر عز الدين بن الأثير أن أبا حذيفة دُعي إلى البراز [٥] فمنعه النبي ﷺ ، فهجته أخته هند بنت عتبة ببيتين من الشعر لم تصدق فيهما الوصف ، وكذبها ابن الأثير فيما قالت ، وقد هداها الله تعالى للإسلام فأسلمت وكانت من المبايعات رحمها الله .

الإيمان في منهج الإسلام لا يميت المشاعر البشرية ولكنه يعليها:

هذه فريدة من فرائد بدر تمثل قوة التجاذب بين الإيمان في ذروة اليقين والعاطفة البشرية في قمة الوفاء البنوي ، وقد ارتفع فيها الإيمان إلى مجالاته من السمو والرسوخ ، فكان في يقينه ظلة أظلت هذا المؤمن النقي فحمته من هزات المشاعر العاطفية ، ومضى مع إيمانه إلى منازل الشهداء ؛ لأن الإيمان في منهج رسالة الخلود لا يميت المشاعر البشرية ولكنه يهذبها ، فيحولها من عصبية جاهلية إلى وفاء لا ينكره المنهج في تطبيقه العملي ، فإيمان أبي حذيفة –رضي الله عنه– إيمان لا تهزه زلازل الأحداث ، فهو إذ يرى أباه يُقتل في أشراف قريش كافرًا ، ويُلقى معهم في قليب بدر يأخذه أسف العاطفة البشرية وفاء لهذا الأب ، ويظل أبو حذيفة مزملًا بإيمانه الراسخ رسوخ الأطواد الشامخات ، فلا يزيد على أن يعروه الاكتئاب على ما فات أباه من خير كان يرجوه له بالهداية إلى الإسلام .

---

(٥) البراز : المبارزة .(المجلة)

هـذا موقف مـن المواقف الآزمـة التي يعتلي الإيمـان صهوتها لتكون سـطرًا من أسـطر منهج الرسـالة في التطبيق الذي لا يلوي عنـق الطبيعة البشـرية في عاطفتهـا وحنانها اللذيـن عبر عنهما اكتئاب أبي حذيفة، وتغير لون وجهه حينما رأى أباه يُسـحب إلى القليب.

والوقع الذي عبّرت عنه الرواية أن اكتئاب أبي حذيفة إنما كان أثرًا من آثار إيمانه، تمثَّل في تطبيق منهج الرسالة في صورة معبّرة عن حب أبي حذيفة -رضي الله عنه- لعقيدته ودينه، ورغبته في أن تسـري رسـالة الهدى التي آمن بها إلى القلوب لتنيرها بإشراقها، وأحـق القلوب وأحبها أن تتبوأه رسـالة الإيمـان والهدى هو قلب والد كان له من فضائل الإنسـانية قسط جعل ابنه المؤمن الصادق يرجو له أن يكون متبوأ لها، ولكن سوابق الأقدار لا تخضع لرجاء الراجين، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (القصص: ٥٦).

ولأبـي حذيفة بـن عتبة موقف آخر في أحـداث بدر يختلف في ظاهـره عن هذا الموقف، بما كان فيـه للعاطفة من جموح تداركه الإيمـان بالندم الصادق الـذي جعل كفّارة هـذا الجموح العاطفي شـهادة فـي سـبيل الله، لا يكفرها غيـر ذلك. أخرج ابن إسـحاق عـن ابن عبـاس -رضي الله عنهمـا- أن النبي ﷺ قـال لأصحابه:- "إني عرفت أن رجالًا من بني هاشـم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمَن لقي منكم أحدًا من بني هاشـم فلا يقتله،

ومَن لقي أبا البختري فلا يقتله، ومَن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنما خرج مستكرهًا" فقال أبو حذيفة بن عتبة: انقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس؟! والله لئن لقيته لألجمنه السيف، فبلغ قولُ أبي حذيفة رسول الله ﷺ، فقال لعمر: "يا أبا حفص" قال عمر: والله إنه لأول يوم كنّاني فيه بأبي حفص "أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟" فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلتها يومئذ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفّرها عني الشهادة، فاستشهد يوم اليمامة رضي الله عنه.

هذا هو الموقف كما تصوره رواية ابن إسحاق، وهو في إطاره الأسلوبي من المواقف الذي تراءت فيه الطبيعة البشرية بكل ما فيها من تراث غريزي، يسوقها بسياط العاطفة حتى تبلغ مداها في التنفيس عن كوامنها النفسية دون أن يستطيع الإيمان مهما بلغت درجته في الرسوخ اليقيني كبح جماحها؛ لأن التغلب على نوازع العاطفة البشرية في الأزمات المفاجئة أمر يعسر على النفس تحقيقه لأول ما تتحرك دوافع الإثارة النفسية لهذه العاطفة، فهو في حاجة شديدة إلى قدر ضخم من الصبر والمصابرة، ومجاهدة النفس لتستقيم رسالة الإسلام في وجوب أن تكون قوة الإيمان قاهرة لجميع النوازع البشرية، متحكمة في تحركاتها، كالذي كان من أبي حذيفة -رضي الله عنه- في موقفه الأول، وهو يرى مصير أبيه في نهايته، مسحوبًا إلى القليب كافرًا مع نظرائه

من أشــراف ملأ قريش، فإنه لم يزد على أنه لم يســتطع أن يكظم إحساســه ومشــاعره التي بــدت في حزنــه واكتئابه وتغيــر لونه، وقــد فرّج النبــي ﷺ ذلك عنه، بســؤال عن هذا الــذي اعتراه في أسلوب رقيق رحيم مشــفق، مقدّر لنوازع عاطفته البشرية لينتزعه من بين براثن الحزن، ويردّه إلى شــفافية الإيمان وإشراقه، ويعيده إلى ذكريات إيمانه، وما لقي في ســبيله من قســوة الحياة وشدائد الغربة وشــظف العيش والصبر المرير على تحمل الأذى وضروب الاضطهاد.

وعــاد أبو حذيفة -رضــي الله عنه- إلى إشــراقة الإيمــان هادئًا وادعًــا بعــد هذا الحديــث الرحيم، وأجاب عن تســاؤل النبي ﷺ بــأن ما ظهــر عليه من الحــزن والاكتئاب لم يمس إيمانه ورســوخ يقينــه من قريــب أو بعيد، ولكنه كان حزنًــا مكتئبًا على فوات ما كان يرجوه لأبيه في شرفه بين قومه، وفضله في عقله من الدخول في الإســلام، فلما رأى مصيره في نهايته التي لا ســبيل إلى تلافيها أحزنه ذلك، فدعا له النبي ﷺ بخير، وقال له خيرًا.

بَيْــدَ أن أبا حذيفة -رضي الله عنه- لــم يقف به القَدَر في محنته الإيمانيــة العاطفية عند هذا الحد، ولكنه يتابع تمحيصه الإيماني بتَســليط العاطفة عليه في رســوخ إيمانه ليزداد إيمانًا مع إيمانه، ويقينًا على يقينه، فيسمع -ولما يكد يفرغ من محنته في أبيه- أن النبي ﷺ ينهى عن قتل أحد من بني هاشم؛ لأنه ﷺ قد عرف أنهم قــد أُخرجوا في نفيــر قريش كرهًا، لا حاجة لهم بقتال رســول الله ﷺ وأصحابــه، ويؤكد النبي ﷺ نهيه العام لعدم قتل أحد من بني

هاشــم بنهي خاص، يخص به عمه العباس -رضي الله عنه- وبعض أفراد من أشـراف قريش كانوا مقاربيــن فيقول: "ومَن لقي العباس بن عبد المطلب عم رســول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج -أي في نفير قريش- مستكرهًا".

وهنا تثب العاطفة البشـرية إلى مشـاعر أبي حذيفة فتسـتحوذ عليهـا، وتسـدل علـى مكامـن الإيمـان مـن قلبه سـتارًا شـفيفًا فيتمثـل أبـاه وعمه وأخاه يُقتلون في المبارزة بسـيوف هاشـمية، ويتمثـل العبّاس عم رسـول الله ﷺ يجاري أشـراف ملأ قريش في إطعـام النفير، وينحر لهم عشـر قلائص في يومـه الذي كان عليه أن يطعمهـم فيـه، وأن النبـي ﷺ قال لـه -حين طولـب أن يفدي نفسـه وابني أخيه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلـب، وحليفه عتبة بن عمرو فادّعى أنه كان قد أسـلم-: "أما ظاهرك فكان علينا والله أعلم بإسـلامك" وإسـلام العباس قبل بدر يدل له حديث أبي رافع مولى رسـول الله ﷺ -وكان غلامًا للعباس- كما أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس من طريق عكرمة في قصته مع أبي لهب.

كان إخبار النبي ﷺ عن استكراه بني هاشم قائما على القرائن ولم يكن وحيا من الله:

ورسـول الله ﷺ حين أخبر أنه قد عرف أن رجالًا من بني هاشم أُخرجـوا كرهًا، لا يريدون قتاله وأصحابه، لم يقل إن هذه المعرفة كانت بسـبيل من سبل النبوة والرسـالة، ولا إنها كانت عن طريق

أي ضرب من ضروب الوحي، فكان الظاهر من أسلوب الإخبار عن هذه المعرفة أنها كانت عن طريق القرائن والأمارات، أو كانت عن طريق إخبار هؤلاء الذين نهى عن قتلهم بأنهم كانوا قد أسلموا، أو أنهم كانوا على سابق عهدهم في الوقوف إلى جانب عدم المساس برسول الله ﷺ أو أحد من أصحابه، ويرشح هذا التأويل قول العباس عند تقاضيه فداء نفسه وابني أخيه وحليفه، أنه كان قد أسلم، ولم يقبل منه رسول الله ﷺ هذا الادّعاء، وقال له: «أما ظاهرك فكان علينا والله أعلم بإسلامك»، وأنه ﷺ لم يقبل شفاعة الأنصار أن يتركوا لابن أختهم العباس فداءه، وقال لهم: "لا، والله لا تزرون منه درهمًا" مع كونه ﷺ تألم جدًا ومنع النوم لسماعه أنين عمه العباس، وهو في وثاقه الذي شدّه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، وتوعّد الأنصار بقتله، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: "لم أنم الليلة من أجل عمي، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه" فقال له عمر بن الخطاب: أفآتهم؟ قال: "نعم" فأتاهم عمر، فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: والله لا نرسله، فقال عمر: فإن كان لرسول الله رضًا، قالوا فإن كان لرسول الله رضا فخذه، فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم، فوالله لأن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذلك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، وقد أطمع ذلك الأنصار، فأرادوا أن يزدادوا في رضا رسول الله ﷺ فاستأذنوه في ترك فداء العباس، فأبى عليهم؛ لأن فداء الأسرى حق للمسلمين المجاهدين، فلو ترك فداء العباس لطمع في مثل ذلك كل مَن له قريب من الأسرى،

فكان سدّ الباب من أحكم السياسة، لئلا يبقى في نفوس أصحابه الذين لهم أقارب أسرى شيء بسبب مسامحة العباس، وأخذ الفداء من غيره.

موقف العباس إلى جانب رسول الله ﷺ تجعله حريا بعطفه وتقديره:

وأما تألم رسول الله ﷺ وشرود النوم عنه فأمر ناشئ عن الطبيعة البشرية التي لا تعارض أمرًا شرعيًا، والعباس -رضي الله عنه- كان حريًا بمنزلته من نفس رسول الله ﷺ؛ لأنه كان بعد أبي طالب من ذوي المواقف النبيلة مع رسول الله ﷺ حمية قومية قبل إسلامه، وكان كثير المجالسة له، ولو لم يكن له من مواقف الحمية النبيلة إلا حضوره معه يوم العقبة الكبرى ليستوثق له من الأنصار، ويريهم أنه ﷺ في منعة من قومه لكفاه في مفاخره المعوضة لمواقف أبي طالب.

تمثل أبو حذيفة كل ذلك، وهو إنسان من البشر، له طبيعته البشرية التي تتأثر بالمواقف العاطفية، فلم يملك نفسه أن قال ما قال حين بلغه ما قال رسول الله ﷺ، فبلغ رسول الله ﷺ قوله، فخشي أن يثير ذلك في نفوس بعض مَن لم يرسخ الإيمان في قلوبهم شيئًا من وساوس الشيطان فيوقعهم في حبائل الأوهام والظنون، فقال لعمر -رضي الله عنه-: «أيُضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟»، تمشيًا مع طبيعة الموقف في ودادة رسول الله ﷺ لعمه الحفي به، ولم يقل رسول الله ﷺ في إنكاره لما قال أبو حذيفة أيردّ أمر رسول الله ﷺ، ويخالف نهيه؟ لأن أبا حذيفة

-رضـي الله عنه- لم يقل ما قال ردًّا لأمر من أوامر رسـول الله ﷺ ، ولا مخالفة لنهي من نواهي رسول الله ﷺ ، وإنما قال أبو حذيفة ما قال حمية عاطفية في لحظة ثورة نفسية .

وما أشبه قول أبي حذيفة في موقفه هنا بقول أم المؤمنين سودة بنـت زمعـة -رضي الله عنها- ، وقد رأت سـهيل بـن عمرو - وكان من أسـرى بدر - مشـدودة يداه إلى عنقه بحبل ، قالت : فلا والله ما ملكت نفسـي حين رأيت أبا يزيـد كذلك أن قلت : أي أبا يزيد ؟ ؟ أعطيتـم بأيديكـم ، ألا متم كرامًا ؟ فوالله ما أنبهني إلا قول رسـول الله ﷺ ، من البيت : «يا سودة ، أعلى الله وعلى رسوله تحرّضين ؟» قالت سـودة -رضي الله عنها- ، قلت : يا رسـول الله ، والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلـت ما قلـت . فقبل النبي ﷺ ، اعتذارهـا ؛ لأن قولها كان أثرًا من آثار تغلب الطبيعة البشرية ، لم يمس إيمانها -رضي الله عنها- بدليل قولها : ما ملكت نفسي أن قلت ما قلت .

ومـع كل ما احتـف بموقف أبـي حذيفة -رضـي الله عنه- مما يدخـل في مجال الاعتـذار عن كلمته التي قالها بعـد أن بلغه نهي النبي ﷺ عن قَتْل أَحَد من بني هاشم ، وخاصة عمه العباس -رضي الله عنه- ، فإنه بعد أن هدأت عاطفته ألقى بنفسه بين أحضان الندم علـى كلمته التي قالهـا ، ورأى أنها في صورتها التي صدرت عنه لا تستقيم مع درجة ميزانه الإيماني الذي امتاز به السابقون من طلائع المؤمنين ، وأن هذه الكلمة لا يكفِّرها عنه إلا شـهادة في سبيل الله يبذل فيها نفسـه فداء لعقيدته وإيمانه ، وقد أناله الله تعالى كفارته التي تمنّاها وعاش حميدًا ومات شهيدًا ، رضي الله عنه وأرضاه .

في الطريق مِن بَدر إلى المدينَةِ

﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾

وقائع وأحداث تسترفد تطبيق منهج الرسالة في تربية المجتمع المسلم لحماية الدعوة ونشرها

كان مما سنه رسول الله ﷺ لمجتمعه المسلم في بدر في معارك الجهاد القتالي أنه إذا ظهر على أعدائه مؤيدًا بنصر الله أقام في ساحة المعركة ثلاث ليال.

وكان أول ما صنع ذلك في غزوة بدر، أول وقائع الجهاد المظفر وأعظمها في تاريخ الإسلام، وقد بدأت جولاتها القتالية يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان، واستمرت إلى آخر يوم من رمضان وأول يوم من شوال سنة اثنتين من الهجرة، وقد انتصر فيها رسول الله ﷺ وأصحابه مع قلة عددهم، وضعف عدتهم المادية القتالية نصرًا وطَّد دعائم الدعوة إلى الله تعالى، وفتح الطريق أمام نشر الرسالة، وأقام معالم الهداية مشرقة مما لم يعرف له التاريخ مثيلًا في مباديه ونهاياته، ومقدماته ونتائجه، وسياسته وحكمته، وهُزم فيها المشركون هزيمةً منكرةً، بددت شملهم، ومزقت حشودهم، وقضت على مصادر قوتهم المادية القتالية، وأذلت غرورهم، وأرغمت آنافهم، بما قُتل فيها من صناديدهم وأشرافهم وقادتهم وبما أسر فيها من طواغيتهم وشياطينهم وزعمائهم، فالمقتولون من هؤلاء والمأسورون من أولئك كانوا يبلغون نصف

جيش المسلمين، إذ قد قُتل سبعون من الصناديد والمتشاجعين، وأُسر سبعون من أمثالهم، وعادت بقاياهم من الغوغاء والأشباح النخرة مشردين مفزعين، مأخوذين لا يدرون من الرعب الذي ملأ قلوبهم أين يذهبون، ولعل الحكمة في سَنِّه ﷺ ذلك تتمثل في:

أولًا – تصفية الموقف بالقضاء على أية حركة من المقاومة اليائسة التي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارين هربًا إلى الجبال يعتصمون بها ولا عاصم لهم من الله وجنده الذين يجاهدون في سبيله، لإعلاء كلمته ونشر رسالته الخاتمة الخالدة.

ثانيًا – دفن من استشهد من جند الله مما لا تكاد تخلو منه معركة، وقد استشهد من هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله فداء لعقيدتهم عددٌ اختلف في حصره الرواة، فعند ابن إسحاق أنهم كانوا أحد عشر رجلًا، وعند موسى بن عقبة أنهم كانوا أربعة عشر شهيدًا، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وهو قول جمهور أصحاب المغازي والسير والمحدثين، وكان أول شهيد في القتال مهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، رماه عامر الحضرمي بسهم فقتله، وقد ذكر الزرقاني أن رسول الله ﷺ قال يوم قتل مهجع «مهجع سيد الشهداء» وروى الحاكم عن واثلة أن رسول الله ﷺ قال: «خير السودان لقمان، وبلال، ومهجع».

ثالثًا – جمع الغنائم وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ حتى تؤدَّى كاملة إلى مستحقيها، وقد أُسندت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبد الله بن كعب الأنصاري النجاري، أحد بني مازن.

رابعًا : - إعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها، بعد الجهد النفسي والبدني المضني الذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النصر المؤزر الذي لم يكن داني القطوف، سهل المنال، ويتذاكر أفراده وجماعاته ما كان من أحداث ومفاجآت في الموقعة مما كان له أثر فعَّال في استجلاب النصر، وما كان من فلان في شجاعته وفدائيته وجرأته على اقتحام المضائق وتفريج الأزمات، وما تكشفت عنه المعركة من دروس عملية في الكر والفر والتدبير المحكم الذي أخذ به العدو، وما في ذلك من عبر، واستذكار أوامر القيادة العليا وموقفها في رسم الخطط، ومشاركتها الفعلية في تنفيذها، ليكون من كل ذلك ضياء يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلة، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

خامسًا : مواراة جِيَف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والتعرف عليهم وعلى مكانتهم في حشودهم وعلى من بقي منهم مصروعًا بجراحه لم يدركه الموت، للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه اتقاء شره في المستقبل، كالذي كان في أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمة، والذي كان في شأن رأس الكفر أمية بن خَلَف وأضرابهما، وقد أمر رسول الله ﷺ بإلقاء هؤلاء الأخابث في ركي من قلب بدر خبيث مخبث، ثم وقف على شفة الركي وقال : «يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ! كذبتموني وصدقني

الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فجزاكم الله عني من عصابة شرًا. خونتموني أمينًا، وكذبتموني صادقًا، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا».

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ وقف على شفة الركي، وجعل ينادي أصحاب القليب بأسمائهم وأسماء آبائهم «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا»؟ فقال عمر: يا رسول الله ما تُكُلِّم من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

رأي عائشة رضي الله عنها في مخاطبة النبي ﷺ أهل القليب وإجابة العلماء عن إشكالها:

وقد استفاض بين أهل العلم قديمًا من السلف والخلف أن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنكرت أن النبي ﷺ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» وقالت إنه ﷺ قال: «إنهم ليعلمون ما أقول».

ولعل مما يحسم هذا الخلاف الذي طال فيه الأخذ والرد ما نقله القسطلاني في المواهب عن أبي بكر الإسماعيلي إذ قال: قال الإسماعيلي: كان عند عائشة رضي الله عنها من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم ما لا مزيد عليه، لكن لا

سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله يدل على نسخه أو تخصيصه و استحالته، فكيف يصار إلى إنكارها، وهذه الأمور الثلاثة منتفية -أي فلا نسخ، ولا تخصيص، ولا استحالة- والجمع بين الذي أنكرته وأثبته غيرها ممكن، وذلك أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ -أي الذي احتجَّتْ به عائشة رضي الله عنها في عدم سماعهم لما قال لهم رسول الله ﷺ، وإنكارها أنه قال: «وما أنتم بأسمع لما أقول منهم»- هو من قبيل الاستنباط الاجتهادي؛ لأن عائشة رضي الله عنها لم تشهد الواقعة، ولم يثبت أن النبي ﷺ قال لها إنهم ليعلمون ولم يقل: «إنهم يسمعون»، قال الإسماعيلي: إن قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ لا ينافي قوله ﷺ: «إنهم الآن يسمعون»؛ لأن الإسماع هو إبلاغ الصوت من السمع في أذن السامع، فالله تعالى هو الذي أسمعهم بأن أبلغهم صوت النبي ﷺ بذلك، وقول أبي بكر الإسماعيلي: «فالله تعالى هو الذي أسمعهم» لا يخلو عن ضعف؛ لأن قضية إسماع الله داخلة تحت عموم أن الله تعالى هو الفعال الخلاق، ثم قال الإسماعيلي: وأما جوابها بأنه إنما قال: «إنهم ليعلمون» فإن كانت بَنَتْه على فهمها الآية فلا تَنافِيَ، وإن كانت سمعت ذلك من النبي ﷺ بعد ذلك أو من غيره عنه فلا تنافي في رواية يسمعون؛ إذ العلم لا يمنع السماع.

ويذهب السهيلي إلى أن المقام مقام إعجاز وخرق للعادة، لقول الصحابة رضي الله عنهم حين سمعوا مقالة النبي ﷺ لأصحاب القليب أتخاطب قومًا قد جيّفوا؟ فأجابهم ﷺ بما أجابهم وعائشة لم تحضر، وغيرها ممن حضر أحفظ للفظه ﷺ

إذ قال لهم: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ثم قال السهيلي: وإذا جاز أن يكونوا في هذه الحالة عالِمين -كما هو قول عائشة- جاز أن يكونوا سامعين كما هو ثابت في رواية عمر وابنه عبد الله وأبي طلحة وغيرهم، إذ لا فرق، والعلمُ لا يمنع السماع.

وعائشة رضي الله عنها لها مثل هذا النحو في الاجتهاد وفهم آيات القرآن وتأويل الأحاديث التي تبدو لأول وهلة كالمعارضة لتأويل القرآن.

النقل عن عائشة رضي الله عنها يحتاج إلى إثبات في إسناده لها لصغر سنها:

قال ابن كثير في البداية: وهذا مما كانت عائشة تتأوله من الأحاديث وتعتقد أنه معارِض لبعض الآيات، وهذا المقام مما كانت تعارض فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ وليس هو بمعارِض له، والصواب قول الجمهور من الصحابة ومَن بعدهم للأحاديث الدالة نصًا على خلاف ما ذهبت إليه رضي الله عنها وأرضاها. على أننا نقول إن سن عائشة رضي الله عنها يوم بدر تجعل هذا النقاش غريبًا يحتاج في ثباته إلى أدلة أقوى من مجرد حكاية هذا القول عنها.

وفي مواهب القسطلاني: ومن الغريب أن في المغازي لابن إسحاق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد، عن عائشة رضي الله عنها حديثًا مثل حديث أبي طلحة وفيه عنها: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» وأخرجه الإمام أحمد بإسناد حسن عنها، فإن كان هذا

الحديث محفوظًا عن عائشة فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة الذين رووا القصة وهم فصحاء عارفون بمواقع الكلام، لكونها لم تشهد القصة وهؤلاء شهدوها.

وهذه المخاطبة لأصحاب القليب إنما كانت على سبيل التقريع والتوبيخ والإغاظة لمن يبلغهم الحديث من الكفار، وفيها إدخال السرور على قلوب مجاهدي الصحابة الذين كانوا يتهيبون لقاء هؤلاء الطغاة الذين صاروا جيفًا منتنة انتهى مصيرهم إلى النار هم فيها خالدون، وفيها تثبيت لقلوب المؤمنين وتربية لهم على أن النصر لا يرتبط بكثرة العدد وقوة العدة المادية وإنما هو بيد الله تعالى يؤيد به من يشاء من عباده إذا اعتصموا بقوة الإيمان والإخلاص وصدق التوكل على الله تعالى مسبب الأسباب، واتخذوا للمواقف الجهادية عدتها بقدر ما يستطيعون من أسباب.

بعث البشرى بالنصر إلى المدينة

نهض رسول الله ﷺ بعد تصفية أحداث الموقعة في مواقعها من ساحة بدر، مشرق الوجه، منور الجبين، متذللًا لله تعالى، شكورًا له على نعمائه عليه وعلى أصحابه، تحفُّ به الملائكة، وتخفق فوقه بنود النصر، وألوية الفوز، وأعلام الحفاوة الربانية، ذَكورًا لاستجابة الله له في استغاثته الضارعة، وهو في أرفع مقامات العبودية، ينشد ربه أن ينجز له عهده، ويحقق له وعده بالنصر على أولياء الشيطان من طواغيت ملأ الشرك والوثنية المادية في

أحـطّ صورها، الذين زحفوا بحشـودهم وقواهـم القتالية متعززين بكثرتهـا عددًا وعـدة، يقودهم الغرور الأحمق، ويسـوقهم طيش الفجـور والعناد الحقود، ليقضوا على دعوة الحق والهدى والخير والإصلاح ويستأصلوا مجتمعها المسلم الذي أشجاهم وأغصهم، واعترض أنفاسـهم، ولكن الله تعالـى كان لهم بالمرصاد، إذ جعل مـن جنـود الحق –على قتلهم عـددًا، وضعفهم عـدة وعتادًا– قوة قاهرة، لم تكدْ تلتقي بأشباح الفجور النخرة في جولات معدودات حتى بوأتهـم الهزيمة النكراء، وأخذتهم قعصًا بالسـيوف، وقتلًا بالرماح والسـهام، وأسـرًا بالأيدي، وتشـريدًا بالرعب، فرعبلت جمعهم، وبددت شملهم، وأرغمت معاطسهم، وأذلت فجورهم، ونكست رءوسهم، ومزقتهم شر ممزق.

أصدق وصف لجولة الحرب التي أعقبها النصر:

وكان أصـدق ما وصفوا به قول أبي سـفيان بن الحارث بن عبد المطلـب وقد لحق بمكـة فارًا مفزعًا، فدخل علـى عمه أبي لهب فـي حجرة زمزم فقال له جبان بني هاشـم: هلم إليَّ فعندك لعمري الخبـر، فجلس إليـه والناس قيام عليه، فقال أبو لهب: يا ابن أخي أخبرنـي كيف كان أمر الناس، فقال أبو سـفيان بن الحارث: والله مـا هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شـاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا.

وفـي حديث قباث بن أشـيم عند ابن عسـاكر، وكان قباث قد حضر بدرًا مع المشـركين فذكر هزيمتهم مع قلة عدد المسلمين

وضعف عدتهم، فجعلت أقول في نفسي: ما رأيت مثل هذا الأمر فرَّ منه إلا النساء، والله لو خرجت نساء قريش بآلتها -يعني سلاحها- ردت محمدًا وأصحابه.

وركب النبي ﷺ ناقته، وأزمع السير إلى المدينة، وسيق الأسرى بين يديه يقودهم مولاه شقران وهم موثقون بالحبال، وكان شقران هو القائم على شأن الأسرى بأمر رسول الله ﷺ، كما أقيم على الغنائم بعد جمعها عبدالله بن كعب الأنصاري النجاري المازني، وسار جمع الإيمان والهدى تحفُّه أنوار النصر، وهم حافُّون برسول الله ﷺ في سيره إلى المدينة منصورًا مظفرًا مؤيدًا بقوة الله وقهره، ومرّ ﷺ على ركي المسحوبين إلى شفير جهنم من أشراف ملأ الكفر والوثنية، فوقف هنيهة مقرعًا لهم، غائظًا لمن يسمعه من بقايا أشباحهم النخرة، وثبت أنهم كانوا يسمعون لقوله، ولكنهم ألجموا فلم يجيبوا.

وكان أول ما بدأ به ﷺ في تحركه من عَرْصة بدر متوجهًا إلى مدينته المنورة -وهي تترقب وصوله إليها في لهفة الشوق والحب، متطلعةً إلى رؤيته وهو مكلل الجبين بنور النصر، وإشراق الحفاوة الربانية- بعثه ببشرى النصر، فبعث مولاه وحبه زيد بن حارثة إلى المدينة، وبعث شاعر الأنصار عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية، وأركب زيد بن حارثة ناقته القصواء أو العضباء، فسار البشيران بين يديه مُجِدِّين في السير، حتى وصل كل منهما إلى من بعث إليهم، وتناديا بالبشرى، واجتمع عليهم الناس، وهما يهتفان بنصر الله وسلامة رسول الله ﷺ، ويذكران مَن قُتل من صناديد

قريش ومن أُسِر من أشرافها، والناس حول كل بشير يسمعون لما يقول مأخوذين عن أنفسهم، وهم بين مصدق ومكذب، ومتشكك متحير، وظهر نجيث اليهود، ونَجَم النفاق واشرأب الكفر[٦]، وجعل فريق من أعداء الإِسلام يستهزئون بما يسمعون، وفريق مكظوم يخاف أن يصدق ما يسمعون.

يقول أسامة بن زيد: لمَّا قدم أبي زيد بن حارثة جئته وهو واقف بالمصلَّى وقد غشيه الناسُ وهو يقول: قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاصي بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج.

قال أسامة: قلت: يا أبت أحق هذا؟ قال زيد: إي والله يا بني.

وعند البيهقي عن أسامة بن زيد من طريق حماد بن سلمة أن النبي ﷺ خلَّف عثمانَ وأسامةَ بن زيد على رقية بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فجاء زيد بن حارثة على العضباء ناقة رسول الله ﷺ بالبشارة، قال أسامة فسمعت الهيعة، فخرجت فإِذا زيد قد جاء بالبشارة فوالله ما صدَّقتُ حتى رأينا الأسارى.

وقال الواقدي: إن رسول الله ﷺ قدم زيد بن حارثة، وعبدالله بن رواحة من الأثيل، فجاءا يوم الأحد حين اشتد الضحى، وفارق عبد الله بن رواحة زيد بن حارثة من العقيق، فجعل عبد الله بن رواحة ينادي على راحلته: يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ، وقتل المشركين وأسرهم، قتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج،

(٦) نجم النفاق: ظهر. (المجلة)

وأبو جهل بن هشام، وقتل زمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو، قال عاصم بن عدي: فقمت إليه فنحوته، فقلت: أحقًا ما تقول يا ابن رواحة؟ فقال: إي والله، وغدًا يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرنين.

ثم تتبع عبد الله بن رواحة دور الأنصار بالعالية يبشرهم دارًا، دارًا والصبيان ينشدون معه، يقولون: قتل أبو جهل الفاسق، حتى انتهى إلى دار بني أمية.

إرجاف المنافقين وتكذيب اليهود:

وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة، فلما جاء إلى المصلى صاح على راحلته: قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأمية بن خلف، وأبو جهل، وأبو البختري وزمعة بن الأسود، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير، فجعل بعض الناس لا يصدقون زيدًا، ويقولون ما جاء زيد إلا فلًّا، حتى غاظ المسلمين ذلك[٧]، وخافوا، وقال رجل من المنافقين لأسامة: قتل صاحبكم ومن معه، وقال آخر لأبي لبابة: قد تفرق أصحابكم تفرقًا لا يجتمعون عليه بعده أبدًا، وقد قتل عِلية أصحابه، وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ماذا يقول من الرعب وجاء فلا، فقال أبو لبابة: يكذب الله قولك، وقالت اليهود: ما جاء زيد إلا فلًا.

(٧) فلَّ: هرب منهزمًا. (المجلة)

قال أسـامة : فجئت حتى خلوت بأبي ، فقلـت : أحق ما تقول ؟ فقـال : إي والله حق مـا أقول يا بني ، فقويت نفسـي ، ورجعت إلى ذلك المنافق : فقلت : أنت المرجف برسول الله ﷺ وبالمسلمين ، لنقدمنـك إلـى رسـول الله ﷺ إذا قـدم ، فليضربن عنقـك ، فقال المنافق : إنما هو شيء سمعته من الناس ، يقولونه ، فجيء بالأسرى وعليهم شقران مولى رسول الله ﷺ .

تلقي الناس لرسول الله ﷺ بالروحاء لتهنئته بالنصر:

واسـتفزت الفرحةُ رءوس الناس ، فنهضوا لتلقِّي رسول الله ﷺ يهنئونه بما فتح الله عليه فأدركوه بالروحاء ، وكان أسيد بن حضير ممـن لم يشـهد الوقعة لظنه أنهـا خرجة لتلقِّي العيـر ، فقام يعتذر ويهنئ فقال : يا رسـول الله ، الحمـد لله الذي أظفرك ، وأقرَّ عينك ، واللهِ يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوًا ، ولكن ظننت أنها عير ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت ، فقبل رسول الله ﷺ اعتذاره ، وصدَّقه من قوله .

ومـن طرائـف ما اشـتملت عليه تروحـات الروحـاء في مجال التهنئة لرسـول الله ﷺ على مـا أظفره الله بعدوه ، وأيده بنصره أن سـلمة بن سـلامة بن وقش ، قال للمهنئين : ما الـذي تهنئوننا به ، والله إن لقينـا إلا عجائز صلعًا كالبدن المعلقة فنحرناها ، فتبسـم رسول الله ﷺ ، ثم قال لابن وقش : «أي ابن أخي ، أولئك الملأ» أي أشراف قريش ورؤساؤها وقادتها ، وذوو كلمتها الذين تعتصم بهم قريش في مواقفها .

هذا الموقف الذي استقبل به البشيران بالفتح والنصر المؤزر موقف تملؤه الحيرة، ويحيط به الشك، ويفسح الطريق أمام تكذيب المكذبين، وتشكيك المشككين، ويفتح أشداق الأخابث من اليهود وربائبهم المنافقين بكلمات السخرية والاستهزاء قبل أن ترى أبصارهم ما يكبتهم ويحرق أكبادهم - يعطي لغزوة بدر حجمها الحقيقي من العظمة التاريخية، ويضعها في موضعها من أحداث الحياة وتقلباتها.

ذلك أن هذه الغزوة لم تكن قط في مقدماتها ومباديها توحي بشيء مما تم في نهاياتها من النصر الضخم الذي كان سببًا في جميع الفتوحات الإِسلامية.

وكل ما كان يمكن -بمقتضى مألوف الحياة- أن يجول في خواطر المؤمنين المخلصين أن هذه الغزوة المباركة تكون طريقًا إلى الفوز بالشهادة في سبيل إعلاء كلمة الله، أما أنَّها تنتهي إلى هذا النصر المدوِّي في آفاق الأرض فهذا ما كان أقرب إلى المحال، وقد كان رسول الله ﷺ أعلم الناس قاطبةً بعواقب هذه الغزوة لو أنها جرت أحداثها في طريقها الطبيعي الذي تصوره وقائعها في مقدماتها.

موقف المناشدة في مقام العبودية جعلت من القلة المؤمنة قوة رهيبة:

ومن ثم كان موقفه ﷺ في مقام العبودية المطلقة وهو يناشد ربه بعد أن عبَّأ أصحابه وعدل صفوفهم ودخل عريشه، يناجي ربه بالبكاء والتضرع، والدعاء المبتهل، وقد نظر إلى أصحابه

فـي قلة عددهم وضعـف عدتهم وهم العصابـة الوحيدة في الحياة كلهـا التي تعبـد الله في الأرض، وتحمل لـواء توحيده، إلى جانب كثرة عدد أعدائهم المشركين الفجار الذين يحملون أعلام الوثنية وتخفـق فوق هاماتهم رايات الشـرك والطغيان والتعطش لسـفك دماء المؤمنين الموحدين، ومعهـم من قوة العتاد المادي، وتوافر أسباب الغلبة القتالية من الرجال والسلاح مما جعل رسول الله ﷺ يبلـغ فـي مناجاته ربه، ومناشـدته أن ينجز له وعـده في دحر هذه القوى الفاجرة المشـركة، ونصر القلة الصابرة المؤمنة، حتى قال مزدلفًـا إلى ربه، يخاطبه بروحه وقلبه وعقله: اللهم إن تَهلكْ هذه العصابـةُ على أيدي هؤلاء الفجرة أعداء الحق، وأعداء الهداية فلن يبقى لك دين، ولن تعبد في الأرض.

وهـذه الصورة لهـذه المناجـاة الضارعة في محـراب العبودية المطلقـة، والمناشـدة البالغة منتهـى ما يمكن تصـوره في ميزان الموقـف، وما ينتظر مـن نتائجه العملية لو لـم تتغير الأحداث – تـدل علـى مـا كان يتوقعه رسـول الله ﷺ من مفاجـآت، وما كان يسـتطلعه في آفاق مناشـدته ربه مـن مدد إلهي جعـل من أصحابه فـي قوة إيمانهم، وعظيـم ثقتهم بربهم قوة ماديـة رهيبة، تقتحم الحواجـز للقـاء الموت وجهًـا لوجه فـي فدائية لا تبالـي أوقعت علـى المـوت أم وقع عليها المـوت، وبهذه الفدائيـة الإيمانية تم لأصحاب رسـول الله ﷺ هذا النصر الذي أذهل كلَّ من سـمع به؛ لأن كل الأحوال المادية المحتفَّة بالمعركة تجعله بعيد المنال في واقع تلك الأحوال.

فالوضع بين القوتين: قوة الغلبة المادية، والفوق العددي والعتادي والتجهز المادي الذي كان في أيدي أعداء الله من المشركين، وقوة المؤمنين التي لم تكن في مظهرها المادي مما يقام له وزن، أو يحسب له حساب في الوقوف أمام ما كان يملكه أعداؤهم الذين جاءوا بحشودهم الزاحفة ليستأصلوا هذه العصابة المؤمنة، ويقضوا على الدعوة إلى الله، وإلى توحيده - لم يكن وضعًا يسمح بالتفكير أو التخيل أن تتم مجرد الموافقة للقتال بين الفريقين في جولة ميدانية.

تفاوت القوتين عددًا وعدةً ملأ الطغاة بالغرور فهزمهم الله شر هزيمة:

ولم يكن هذا الوضع المتباعد التفاوت في القوة عددًا وعدةً بعيدًا عن تصور طغاة المشركين، وقائدهم غميز الرجولية الفاسق أبي جهل لعنه الله، بل كان بين أيديهم وتحت أسماعهم وأبصارهم منذ اللحظة الأولى التي حزروا فيها القلة المؤمنة التي جاءوا لاستئصالها والقضاء عليها، وعرفوا أنها قلة قليلة، ليس وراءها أكمنة، وليس لها عدة قتالية، تستأهل أن يواقفوها في ميدان المعركة؛ لأنهم في نظر هؤلاء الأعداء الفجرة ليسوا إلا أكلة جزور، كما قال فاسقهم وقائد حشودهم أبو جهل، فيجب أن يؤخذوا بالأيدي أخذًا ليعرفوهم سوء ما اقترفوا من مفارقتهم لقومهم، وتركهم اللات والعزى إلى هذا الدين الجديد الذي جعل الآلهة إلهًا واحدًا، والذي ينادي بحرية التفكير وعزة حياة الإنسان

وكرامته ليسوي بلالًا مع أمية بن خلف سيد البطحاء، وسمية أم عمار مع العطارة بنت مخربة أم أبي جهل، وفلانًا بفلان.

فإذا انقلب الميزان بين القوتين، وتحول مجرى الحوادث، وشحنت القلة المؤمنة بقوة الإيمان الفدائي، وخارت عزائم الفجور في قوة العدد وكثرته وقوة العدة وأسلحتها، فقاتلت القلة المؤمنة وبين عينيها هدفها الإيماني ليعبد الله وحده، ويذهب الشرك وأهله، والوثنية وحزبها إلى مهاوي الفناء، وقاتلت الكثرة الفاجرة وهدفها نشر أجنحة الطغيان على آفاق الحياة، ليعم الظلم فجاج الأرض، ويبقى الفجور العتيّ هو صاحب السلطان على البشرية المهيمن على مقدراتها أينما حلت من أرض الله، ويبقى عبيد الوثنية وأحلاس الشرك العائشون لبطونهم وشهواتهم هم المتحكمون في مصائر الحياة، يستعبدون الإنسانية من أجل ما في أيديهم من لعاعات الدنيا ولقمة العيش.

الحياة لم تُخلَق للطغاة ولكنها خُلقت لتعرف أسرارها تعبدًا لله خالق الحياة:

ولكن الله عز شأنه الذي خلق الحياة وما فيها ومن فيها، وجعل زمام العزة فيها للإنسان، أيًا كان هذا الإنسان الذي هو بحكم إنسانيته سيد هذه الحياة بإيمانه بربه وخالقه - لم يخلقها ليجعل سلطان قيادها في أيدي حثالة الإنسانية من الطغاة الفجرة، يمرحون فيها ويسرحون في حمآت الشهوات الداعرة والرغائب الطاغية، وإنما خلقها ليعرفها بما خلق فيها من أسرار الكون وجلال

وحدانيتــه ومحكم تدبيره، وقهر سـلطانه، لتفـرده وحده بالعبادة حتى تصل بهذه المعرفة إلى الكشــف عن أســرار نفسها ليكون لها من هذا الكشــف تحقيق تحررهــا من عبودية المخلوقين في شــتَّى صورهم وأشكالهم وحقائقهم، وهذا التحرر هو الدعامة التي ترتكز عليهــا الحياة فــي أوضاعها الاجتماعية، حتى يســتحوذ الصالحون لعمــارة الأرض من أبناء الإِنســانية على زمام قيادتها بالقوة القاهرة، قــوة الإِيمان وعزة الحياة وكرامة الإِنســان، وتحرير الراســفين في أغلال الظلم الاجتماعي الظلوم من عبودية لهذا الظلم الفاجر.

وهذه القوة القاهرة ليســت في كثرة عــدد الظالمين، ولا فيما يملكون من عدة مادية طاغية، وإنما هي كامنة في معرفة الإِنســان لحقوقه وواجباته في هذه الحياة، والغضب لســلب هذه الحقوق، وهــذا ما لا يتحقق إلا بقــوة الإِيمان بالله عز شــأنه وصدق التوكل عليه، وحب الموت في سبيل الحياة الكريمة.

وهــذا الإِيمان هو العامل الفعَّال الــذي قلب ميزان معركة بدر، وجعل القلة المؤمنة هي ســيدة الموقف فيها، ذلك الموقف الذي انتهــى بأعظم نصــر عرفته المعــارك التي دارت وتــدور بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والنور والظلام.

المتشككون في أخبار البشرى بالنصر لم يعرفوا أن قوة الإيمان تقهر عظائم الأحداث:

والذيــن تشــككوا فــي أخبــار بعث التبشــير بنصــر المؤمنين وسلامة رسول الله ﷺ، وهزيمة حشود الكافرين، والذين أسرعوا

إلـى تكذيبهـم من غثـاء بقايـا الشـرك والوثنية وأخابـث اليهود وربائبهـم المنافقيـن لم يكونـوا ليعرفوا هذا الإيمـان الذي قلب ميـزان المعركة، ولم يكونوا ليصدقوا بهذا الإيمان وآثاره الغامرة التي أزاغت أبصارهم، وأضلت بصائرهم حتى كبتهم الله كما كبت حشـود الفجرة في المعركة بالقتل والأسـر والهرب والتشـريد، فرأوا الأسرى من أشراف نفير قريش بأبصارهم مصفدين بالأغلال يقودهم شقران مولى رسول الله ﷺ أذلة، يسوقهم الرعب والفزع، ويستولي عليهم الخوف والهلع، تدور أعينهم في وجوههم كالذي يُغشى عليه من الموت، ورأوا رسول الله ﷺ على ناقته مكلَّلًا بتاج النصـر يحفه التواضـع لله تعالى وهو يقول لأصحابه: «اسـتوصوا بالأسرى خيرًا».

قتل النضر بن الحارث صبرًا في الطريق من بدر إلى المدينة

كان النضـر بـن الحـارث بن علقمـة بن كلدة العبـدري أخبث شـياطين الفجور في عداوته رسـول الله ﷺ، وأفجر أعداء الدعوة إلى الله، وأعتى طواغيت قريش في الوقوف أمام سير رسالة الهدى والنـور التي جاء بهـا الله تعالـى لإقامة صرح التوحيـد، وتقويض معالم الشرك والوثنية.

وكان النضـر -لعنه الله- يجلس إلى غوغـاء قريش، فيحدثهم بأقصوصات أسـفنديار ورسـتم[٨] وغيرهما ممن حُبكت حولهما

(٨) أسفنديار ورستم شخصيتان فارسيتان. (المجلة)

الأسـاطير الخرافية ليصدهم عن سـماع القـرآن الحكيم، ويقول لهم: أليس هذا أحسن مما يقول محمد؟

وكانـت قريش وملؤهـا وطواغيتها تعرف لهذا الخبيث شـدة عداوته لرسول الله ﷺ، وفجور عتوه في مقاومة دعوته إلى توحيد الله، فبعثته ومعه لصيق النسـب بقريش لئيـم الفجار وفاجر اللئام عقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ليسـألاهم عن رسول الله ﷺ ودعوته إلى توحيد الله.

أخـرج ابن إسـحاق من طريـق عكرمة عن ابن عبـاس رضي الله عنهمـا قال: بعثت قريش النضر بن الحـارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهما: اسألاهم عن محمد، وصِفا لهم صفتـه، وأخبِراهم بقوله، فإنهم أهـل الكتاب الأول وعندهم علـم ما ليس عندنا مـن علم الأنبياء، فخرجا حتـى قدما المدينة، فسـألا أحبـار يهود عن رسـول الله ﷺ، ووصفا لهـم أمره، وذكرا لهـم بعض قولـه، وقالا لهم: وقـد جئناكم لتخبرونـا عن صاحبنا هـذا. فقالت لهم أحبار يهود: سـلوه عن ثـلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل، فرُوا فيه رأيكم: سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنـه قد كان لهم حديث عجيب، وسـلوه عـن رجل طوَّاف، طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة -لعنهما الله- حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرَنا أحبارُ يهود أن نسأله عن أمور، فأخبَراهم بها، فجاءوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فأنزل الله على رسوله سورة الكهف، وفيها ذكر الفتية وشأنهم، وذكر الرجل الطوَّاف ونبؤه كما أنزل عليهم: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

(الإسراء: ٨٥)

فألبست قريش وراحت تفكر وتقدر، وتدبر وترسم، ولم تجد لها مخرجًا مما وضعها فيه سفيراها النضر وعقبة من مأزق ضاقت به أنفاسها سوى أن تزداد عتوًا وطغيانًا في تعذيب المستضعفين من طلائع الإسلام الذين عصمهم الله بعواصم الصبر الصبور، واحتمال الأذى في سبيل إيمانهم وعقيدتهم حتى أظفرهم الله تعالى في وقعة بدر بهم وشفى صدورهم، وأعزهم عزًا لم يعرف التاريخ له مثيلًا.

وكان النضر -لعنه الله- من بين الأسرى الذين سيقوا مصفدين بالأغلال، تعلو وجوههم كآبة الصَّغار والذلة.

ولما بلغ رسول الله ﷺ في مسيره من بدر إلى المدينة منصورًا، مكانًا يقال له (الصفراء) أمر علي بن أبي طالب بقتل النضر بن الحارث، أخبث أعداء الله وأعداء الأنبياء والمرسلين، فقتله، وقد لاحق التعقيد والتأزم التاريخي هذا الخبيث المُلَعَّن في سيرته

وتراجمه في كتب المغازي والسير، فاختلفت فيه الروايات اختلافًا عريضًا، بعيد الجنبات أدَّى ببعضهم إلى أن وضعه في مصافِّ المسلمين، بل في صفوف أعليائهم من ذوي الهجرة الحبشية، وبعضهم نزل به إلى صفوف المؤلَّفة، وأنه كان من ذوي المئين في عطاء حنين.

بحث وتحقيق حول النضر وتشابه اسمه مع اسم أخيه:

بيد أن التحقيق التاريخي ردَّه إلى مثواه من طواغيت الكفر، ووضعه في مقره على طريق جهنم وبئس المصير.

فأبو نعيم في الدلائل، وابن منده في تراجم الصحابة، وضعاه بين المؤلَّفة، وقال: إنه شهد حنينًا مُسلِمًا، مهزوز الإسلام، وأعطاه رسول الله ﷺ مئة من الإبل ليستألفه على الثبات على الإسلام.

وقد أضاف أبو نعيم وابن منده إلى غلطهما هذا غلطًا آخر إذ نسبا هذا الرأي إلى ابن إسحاق، قال الزرقاني في شرح المواهب: وهو غلط، فالذي قاله ابن إسحاق، وأجمع عليه أهل المغازي والسير أن النضر بن الحارث قُتل كافرًا بعد بدر صبرًا.

وذهب ابن حجر في الدفاع عن أبي نعيم وابن منده إلى احتمال أن يكون للنضر بن الحارث المقتول بعد بدر كافرًا أخٌ سُمِّي باسمه، فهو الذي ذكره أبو نعيم وابن منده، لا هذا المقتول كافرًا.

وذهب أبو عمر بن عبد البر في المغازي إلى أن المذكور في المؤلفة قلوبهم النضر -هكذا مكبَّرًا- بن الحارث بن علقمة بن كلدة، أخو النضر -هكذا أيضًا مكبَّرًا- بن الحارث المقتول ببدر

-أي عقبها- صبرًا، وهذا يرفع احتمال ابن حجر، فيجعله قولًا بغير احتمال، ما لم يكن هناك غلط مطبعي في النسخ.

بيد أن ابن عبد البر ترجم في الاستيعاب للنضير -هكذا مصغرًا- أخي النضر بن الحارث المقتول صبرًا في الطريق من بدر إلى المدينة، قتله علي بن أبي طالب بأمر النبي ﷺ، والناس نازلون بالصفراء.

وقال ابن عبد البر عن النضر المقتول صبرًا في هذا الموضع من الاستيعاب: وكان -لعنه الله- شديد العداوة لرسول الله ﷺ.

فالذي قيل عنه إنه من المؤلفة قلوبهم، وإن النبي ﷺ أعطاه مئة من الإبل هو النضير -هكذا مصغرًا- وهو معدود في حكماء قريش وحلمائها، وهو الذي قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب إنه من المهاجرين في أحد قولين وأصحهما، وأكثرهما رواية: والقول الثاني أنه من مسلمة الفتح.

وقد اعترض عز الدين بن الأثير في (أُسد الغابة) على ابن عبد البر في ترجيحه أنه من المهاجرين، فقال: وهذا القول قد نقضه على نفسه في سياق خبره، فإنه قال أعطاه النبي ﷺ مئة من الإبل، قال ابن الأثير: والنبي ﷺ لم يفعل ذلك إلا مع مسلمة الفتح، ومن تألَّفه على الإسلام.

وهذا الحصر في كلام ابن الأثير غير مسلَّم على إطلاقه، وقد يكون هذا هو الغالب، ولا سيما في غنائم حنين؛ لأن النبي ﷺ قد يعطي، بل قد أعطى بعض ذوي الحاجة من راسخي الإيمان لحاجتهم لا لتألفهم على الإسلام.

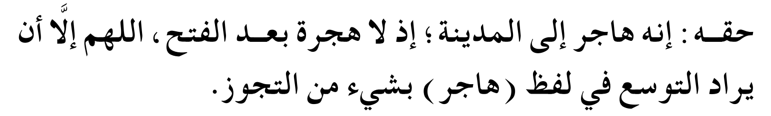
ويبقـى بعد ذلك أنَّ ابن عبـد البر ذكر في المغازي أن المذكور في المؤلفة قلوبهم هو النضر -هكذا مكبَّرًا- وموافقًا لاسم اللعين المقتـول صبـرًا عقب بدر، فيكـون ابن عبد البر قـد اختلف على نفســه في كتابيه المغازي والاسـتيعاب ما لم يثبت أن في أحدهما غلطًا مطبعيًا.

وإعطاء النبي ﷺ للنضير -مصغرًا- وهو المترجَم في استيعاب ابن عبد البر، وأسد ابن الأثير مئة من الإبل في حنين، لا يدل على أنه من المؤلفة قلوبهم، فقد ذكر ابن الأثير، وسبقه بذلك ابن عبد البـر أن النضير جاءه رجلٌ من الديل يبشـره بـأن النبي ﷺ قد أمر لـه بمئة من الإبـل، وقال الديلي للنضير: أخذنـي؟؟؟، أو أجزني منها، فقال له النضير -وقد توهم أنها لتألفه على الإسلام- ما أريد أخذها؛ لأني أحسب أن رسول الله ﷺ لم يعطني ذلك إلَّا تألفًا على الإسلام، وما أريد أن أرتشي على الإسلام.

ثم بعد تأمل في حال نفســه وموقفه من رسـول الله ﷺ في رده عطيتـه قـال النضيـر: والله ما طلبتها ولا سـألتها وهـي عطية من رسول الله ﷺ فأخذها، وأعطى الديلي منها عشرة.

وقـد ثبـت أن النبي ﷺ أعطى عمر بن الخطـاب رضي الله عنه قـدرًا من المـال فردَّه عمر، فقال له رسـول الله ﷺ: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف له -أو كلمة نحوها- فخذه».

ويتفـق ابـن عبد البـر، وابن الأثيـر على أن النضيـر هاجر إلى المدينة، فلو كان من مسـلمة الفتح المؤلفـة قلوبهم فلا يقال في



حقه: إنه هاجر إلى المدينة؛ إذ لا هجرة بعد الفتح، اللهم إلَّا أن يراد التوسع في لفظ (هاجر) بشيء من التجوز.

وقال الزرقاني بعد أن ذكر أقوال العلماء في النضير بن الحارث وآخرون فيمن هاجر إلى الحبشة: فإن كان منهم فمحال أن يكون من المؤلفة قلوبهم؛ لأنه ممن رسخ الإيمانُ في قلبه، وقاتل دونه، لا ممن يؤلف عليه.

وهذا غريب من الزرقاني؛ لأن الذين هاجروا إلى الحبشة لم يكونوا على مستوى واحد في قوة الإيمان ورسوخه، بل كان فيهم ضعيف الإيمان، مهزوز العقيدة، ومن هؤلاء من ارتدَّ عن الإسلام في الحبشة وتنصَّر فيها ومات على نصرانيته مثل عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، قبل أن تتشرف بزواج النبي ﷺ منها، ومنهم من فُتن عن دينه بعد عودتهم إثر أكذوبة الغرانيق إلى مكة.

وقد ذكر البلاذري عن الهيثم بن عدي أن النضير بن الحارث هاجر إلى الحبشة، ثم قدم مكة فارتد، ثم أسلم يوم الفتح أو بعده، فالقول بأن النضير معدود فيمن هاجر إلى الحبشة لا ينافي أنه كان من المؤلفة قلوبهم الذين أسلموا يوم الفتح أو بعده لوجود الاحتمال الذي ذكره البلاذري عن الهيثم بن عدي.

على أن ابن حجر ذكر في (الإصابة) أن إعطاء رسول الله ﷺ مئة من الإبل كان للنضر -هكذا مكبَّرًا- لا للنضير بلفظ التصغير،

وأن هذا الإعطاء كان حينما أقبل رسـول الله ﷺ من الطائف ونزل الجعرانة، ولم يكن في حنين التي كان يعطي فيها المؤلفة قلوبهم من أنفالها وغنائمها.

والمعـول عليه الـذي لا تردد فيـه أن النضر -هكـذا مكبرًا- بن الحارث بن علقمة بن كلدة أخبث شياطين قريش قُتل صبرًا عقب بدر بمكانٍ يقال له الصفراء، قتله علي بن أبي طالب بأمر رسول الله ﷺ.

وذكـر ابن إسـحاق وتبعه أكثـر من كتب في المغازي والسـير بعده أبياتًا مسـتعطِفة، تتضمن مدحًا لرسـول الله ﷺ واستشفاعًا فـي قتل النضر بن الحارث، منسـوبة إلى أختـه أو ابنته قتيلة وهي أبيات فيها نفحة شـاعرية، فلما سمع أبياتها النبي ﷺ قال -فيما تقول الرواية-: «لو بلغني هذا الشعر قبل أن أقتله لمننت عليه».

وذكر الزرقاني أن الزبير بن بكار قال: سمعتُ بعض أهل العلم يغمـز هـذه الأبيات، ويقول: إنهـا مصنوعة، وهذا كثيـر جدًّا في الشعر الذي أكثر منه ابن إسحاق في سيرته.

يقول ابن المنير في توجيه ما عُزي إلى النبي ﷺ في شـأن هذه الأبيـات: وليس معنى كلامه ﷺ الندم؛ لأنه لا يقول ولا يفعل إلا حقًا، والحق لا يندم على فعله، ولكن معناه لو شفعتْ عندي بهذا القول لقبلت شـفاعتها، ففيه تنبيه على حق الشـفاعة والضراعة، ولا سـيما الاسـتعطاف بالشـعر فإن مكارم الأخلاق تقتضي إجازة الشاعر وتبليغه قصده.

قتل لصيق قريش عقبة بن أبي معيط

كان عقبة بن أبي معيط دنيء الفجور، خبيث الكفر، لئيم السفاهة، خسيس الشخصية، مغموز النسب في قريش، يشهد مجالس الملأ من طواغيتها وهو مرذول محقر منهم، ليس له معهم إلا أن يتعرف مواقع الرضا منهم، فيسرع إلى التقرب إليهم بتنفيذ ما يتوهم أنه رضا لهم، يستبطن الغدر، لا تعرفه قريش إلا لتستخدمه في أحط مواقف الفجور، لم تعرف له الحياة الجاهلية موقفًا من مواقف الشرف الوثني قط، فهو عربيد متعهر، يسمع هذا الخبيث الملعَّن ملأ قريش وهم في مجلسهم يقولون: من يقوم إلى هذا السلا -يشيرون إلى أقذار من الدماء والأكراش المتعفنة مطروحة على مقربة منهم- فيلقيه على ظهر محمد وهو ساجد؟ فيبادر قولهم، ويسبق عُبدانَهم والأدنياءَ من أتباعهم هذا الفاجر المُلصَق النسب بقريش إلى إجابتهم فيقول: أنا، ويقولون له: نعم، أنت أهلها، ويذهب إلى هذه القاذورات التي تأنف أحط الحشرات أن تمشي إليها، ويحملها ويأتي بها، ويلقيها على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد -والملأ ينظرون متسافهين متضاحكين، ويبقى النبي ﷺ في سجوده حتى ذهب الصريخ إلى الزهراء سيدة نساء العالمين عليها السلام السيدة فاطمة بنت أكرم خلق الله أبًا وأمًا، فتأتي رضي الله عنها وأرضاها، وترفع هذه الأقذار عن ظهر أبيها، وتغسل ما لحق به ﷺ من آثار هذا التسفل الفاجر، ثم تُقبِل على ملأ قريش فتسبهم وتشتمهم، فنكسوا رءوسهم ولم يردوا عليها بكلمة واحدة، وقام النبي ﷺ ونظر إليهم نظرةً أحاطت

بهم وكأنها لعنات من السماء تُصَبُّ عليهم، وتأخذ من أنفسهم مأخذ الخنجر المسموم وهو يهوي إلى صدر غفول[٩].

استخزاء عقبة وهو يرى موقف الخزي من ملأ قريش:

ويرى الفاجر لصيق قريش عقبة بن أبي معيط -لعنه الله- هذا المنظر المتخاذل من مواقف ملأ قريش فيستخزي، ويتوارى ذليلًا حقيرًا؛ لأنه لم يكن يتصور أن ملأ قريش الذي يتعزز بالنسب إليهم يسمع من محمد ﷺ ما يسمع ثم يقفون هذا الموقف الذليل الذي يجلله الخزي والعار. وتمضي الأيام بطيئة ثقيلة الخطى في كفاح مرير، ونضال صبور بين الحق والباطل، والخير والشر، ولا يجد ملأ الفجور الطغاة من قريش متنفسًا إلا أن يصبُّوا على طلائع السابقين إلى الإسلام جامَ غضبهم تعذيبًا واضطهادًا، حتى فتح الله الطريق إلى الهجرة، فهاجروا إلى إخوانهم الأنصار بالمدينة، وبنوا فيه صرحًا شامخًا للمجتمع المسلم الجديد في تركيبه الاجتماعي التكافلي بامتزاج من هاجر بمن نصر.

قتل عقبة بن أبي معيط وهو يتذلل جبنًا وخزيًا:

وجاءت غزوة بدر بأحداثها تسعى إلى المجتمع المسلم عزيزة، تحمل له ألوية النصر، وجاءت حشود الفجار من ملأ قريش وغوغائها إليها مدحورة مهزومة، والتقى الجمعان، وتمشي سيوف المجتمع المسلم إلى أعناق أشراف حشود الفجار فتقطها

(٩) غفول هنا بمعنى غافل، أي: في غفلة من صاحبه. (المجلة)

قطًا[١٠]، وكانت الجبال والوديان مأوى الفارين هربًا من القتل، فأُخذوا أسرى مصفدين في الأغلال أذلاء، وفيهم هذا اللصيقُ الفجور عقبة، ويأمر رسولُ الله ﷺ أصحابَه بالرحيل إلى المدينة بعد تصفية الموقف في بدر، ويبعث ببشرى النصر إلى من في المدينة وأعاليها، ويسوق شقران مولى رسول الله ﷺ الأسرى، وفيهم بقايا أشراف قريش، ويقوم على الغنائم وحفظها أحد البهاليل من الأنصار عبد الله بن كعب النجاري المازني، ويمضي رسول الله ﷺ في سيره حتى يبلغ (عرق الظبية) مكان على ثلاثة أميال من الروحاء مما يلي المدينة، وهناك يأمر ﷺ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري، العقبي، البدري -خال عاصم بن عمر بن الخطاب لا جده، كما توهمه بعض الرواة ونبه عليه الحافظ ابن حجر فهو أخو جميلة بنت ثابت، وهي صاحبة قصة الامتناع عن مزج اللبن بالماء خوفًا من الله تعالى، وقد سمع عمر بن الخطاب محاورتها في ذلك مع أمها فزوجها لابنه عاصم، فكان من أبرك ثمراتها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما- بقتل أخبث من مشى على أرض مكة اليهودي (المتقريش) عقبة بن أبي معيط -لعنه الله- الذي بلغ من فجوره وكفره ومهانته في تقربه للملأ من قريش أن آذى رسول الله ﷺ إذاية لم تُبقِ له في سجل الرحمة من قلب رسول الله ﷺ شيئًا قط، وفيها مواقف ننزه البحث عن ذكرها.

---

(١٠) قطَّ الشيء: قطعه طولًا. (المجلة)

ثم قال الزرقاني: قال الإسماعيلي: وهذا الطعن خاص بنسب عقبة من بني أمية، وفي نسب أمية نفسه مقالة أخرى، أبينا أن نذكرها، وقد ذكرها الإسماعيلي، وكلامُ الإسماعيلي يُشعِر بترجيح ما قيل في نسب عقبة بن أبي معيط. وفي بداية ابن كثير عن ابن إسحاق قال: ثم خرج -أي النبي ﷺ- حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبي معيط.

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ليقتله، قال: يا معشر قريش، علام أُقتَل من بين من ههنا؟ قال: على عداوتك لله ورسوله.

وقد نفَّذ عاصم بنٍ ثابت أمر رسول الله ﷺ وطهَّر الأرض من رجس الفاسق جزاءً وفاقًا على ما كان منه من فجور وإجرام.

ولما خرج رسول الله ﷺ من مضيق الصفراء قسم النفل بين المسلمين على السواء، ثم أقبل ﷺ إلى المدينة فدخلها قبل الأسرى بيوم، مؤيدًا منصورًا وقد خافه كل عدو له بها وحولها، وأسلم كثير من أهل المدينة، وتظاهر رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول بالإسلام، يدرأ به عن نفسه، وقالت اليهود: لقد تيقَّنَّا أنَّه النبي الذي نجد نعته في التوراة. ثم فرق رسول الله ﷺ الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيرًا» وقد كان لهذه الكلمة النبيلة أعظم الأثرِ في تطبيق منهج الرسالة على الذين لا يملكون لأنفسهم تصرفًا، وظهر فيها تحقيق معنى قول الله تعالى في الثناء على المؤمنين: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان: ٨).

وهـذا لـون مـن التوجيه الإنسـاني في منهـج رسـالة الخلود، يمثـل ما قامـت عليه هذه الرسـالة من إعـزاز الإنسـان وكرامته، فالأسـرى بقايـا مـن أعـداء المجتمع المسـلم، أبت عليـه روحه التربوية الرحيمة أن يحمِّلهم عواقبَ ما كان منهم وهم محاربون، فيأخذهم بالشـدة وقد أصبحوا في يده لا يملكون من أمر أنفسهم شـيئًا، وأبت عليـه نخوته الإيمانية أن يحمِّلهـم آثار ما كان منهم ومن طواغيتهم في اضطهاد طلائع السابقين إلى الإسلام وإيذائهم بصنوف التعذيب وألوان البلاء، وهم إذ ذاك لا يملكون الدفاع عن أنفسهم لأن رسالة الهدى والنور لم تكن تستهدف إعنات الحياة، وأخذها بروح الغلبة والقهر، والسـيطرة والتشفي، فالنبي ﷺ إذ يقول لأصحابه بعد أن وصلوا مأمنهم واستقروا أعزةً في مدينتهم: «استوصوا بالأسرى خيرًا» إنما يذكِّرهم بمنهج رسالتهم التي جاء به دستورها الأعظم.

الوصيـة بإكـرام الأسـرى جانب مـن المنهـج الإسلامي الرحيم:

وقد كان هذا السـلوك التربوي العظيـم مدعاة لإيمان كثير من هؤلاء الأسـرى، بل مدعـاة لتلاقـي مناحي التفكير بين الأسـرى وآسـريهم مما أتاح للدعوة إلى أن تسـري إلـى القلوب رحيمة، لا إكراه فيها ولا تعنيت، بل أتاح لها أن يسبقها الحديث عن هدايتها مع الذين افتدوا أنفسـهم، وعادوا إلـى بلدهم وأهليهم، يتحدثون إليهـم عـن محمد ﷺ ومـكارم أخلاقه وعن مجتمعه وسـماحته،

وعـن دعوته وما فيها من البـر والتقوى، والإصلاح والخير، وإيثار الإخـاء الإيمانـي على الإخـاء الجاهلي الـذي يعتمـد على علاقة الولادة والعنصرية النسبية.

ذكر ابن إسـحاق: أنه كان في الأسـرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعـب بن عميـر لأبيه وأمـه، وهو ممـن كان مثـلًا مضروبًا في الحديث عن التربية السلوكية للمجتمع المسلم، وهو ينفذ وصية رسـول الله ﷺ بالأسـرى فيقـول: مرَّ بـي أخي مصعـب بن عمير ورجلٌ من الأنصار يأسـرني، فقال له مصعب: شُدَّ يدك به، فإن أمَّه ذات متـاع لعلهـا تفديه منك، فقال أبو عزيـز لأخيه مصعب حين سـمع قولَه لآسـره: يا أخي هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك.

ويقـول أبو عزيـز بن عمير: فكنت في رهط مـن الأنصار حين أقبلـوا بي من بـدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشـاءهم خصوني بالخبـز: وأكلوا التمر لوصية رسـول الله ﷺ لهم بنـا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحي فأردها، فيردها عليَّ ما يمسها.

وقـد كان لهـذا السـلوك الرحيم -الـذي وضع أساسـه القرآنُ الكريم في ثنائه على المؤمنين وذكَّر به النبي ﷺ أصحابه فاتخذوه خُلُقًا وكان لهم طبيعة- أثرُه العظيم في إسـراع جماعة من أشراف الأسـرى وأفاضلهم إلى الإسـلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر بعيد وصول الأسـرى إلى المدينة وتنفيذ وصاة رسـول الله ﷺ، وأسلم

معه السائب بن عبيد بعد أن فدى نفسه، ثم أسلم منهم جماعة يوم الفتح كان على رأسهم سهيل بن عمرو، وكان مفوهًا فصيحًا، وأراد عمر بن الخطاب أن يصنع به ما يعوقه عن فصاحته، فقال لرسول الله ﷺ: دعني أنزع ثنية سهيل بن عمرو فيدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا في موطن أبدًا، فأبى رسول الله ﷺ على عمر أن يجيبه، ورأى أنَّ هذا من باب التمثيل وتشويه خلقة الإنسان، وقال لعمر: «لا أمثل به فيمثل الله بي، وإن كنت نبيًا» وهذا نموذج من منهج رسالته ﷺ وضعه ليكون نبراسًا لأمته في انتصاراتها على أعدائها، وجعله من ضمن وصيته في الجهاد، إذ قال في رسالته لكتائبه: «لا تغلوا ولا تمثلوا».

ثم أراد رسول الله ﷺ أن يذكِّر عمر رضي الله عنه بفضل الله ليخفف من حميته فقال له: «إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه».

وقد حقق الله تعالى رجاء رسول الله ﷺ، ووقف سهيل بن عمرو رضي الله عنه موقفه في الناس بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وارتدت العرب إلَّا قلةً ثبتت على الإسلام، ونجم النفاقُ واشرأب غدر اليهود، واشتد الأمر، فقام سهيل في أهل مكة خطيبًا ليثبتهم على الإيمان بعقيدة الإسلام، فثبتوا وكان من أشباله الذين أقاموا دعائمه.

ومما يكشف عن آثار منهج رسالة الإسلام في تربية المجتمع المسلم تربية سلوكية يتخذ منها هذا المجتمع دستورًا يقيم على دعائمه بناء حياته الاجتماعية في مستقبل سيرته في الدعوة إلى

الله تعالى وإقامة موازين العدل والإخاء الإنساني، وتوجيه الإنسانية إلى منازل الهداية في سلوكها، معتصمة بالإيمان بالله عز شأنه إلهًا واحدًا، متفردًا بحق المعبودية، وتدبير الكون بحكمته، متباعدة عن مزالق الشرور والفساد، تعبدًا للرغائب والشهوات التي تحكمها نزعات الغرائز الجامحة - تتبع الوقائع والأحداث التي تسترفدها المواقف البطولية في جهاد المجتمع المسلم لإعلاء كلمة الله، والتي قضى فيها رسول الله ﷺ قضاءً منهجيًا، يمثل خصائص الرسالة في وضعها الاجتماعي المتكافل الذي يجعل من المجتمع المسلم وحده أساسها الإيمان بالله، إيمانًا يتخذ من جوانب المنهج دعامة يقوم عليها بناء الحياة لنصرة الحق، وحماية العقيدة التوحيدية التي هي أساس كل إصلاح يقضي على الوثنيات في شتى صورها وأشكالها، ويكشف عوار الشرك المدنس للتفكير الإنساني.

نموذج لتطبيق المنهج التربوي في حياة المجتمع المسلم:

ومن ثم كان لا بد من النظر في بعض هذه الأحداث باعتبارها نموذجًا لتطبيق المنهج التربوي، حتى إذا كُشف الغطاء عن هذه الجوانب استحال المنهج قانونًا ينظم الحياة على أسس من الفضائل الإنسانية في ضوء الأصول الأصيلة للرسالة الخاتمة؛ إذ أتينا على بعض الأحداث التي كانت وقائعها صورة ممهدة لمسيرة الدعوة إلى الله وإعلاء كلمته -بإزالة العقبات والعوائق،

وتطهيـر الحيـاة مـن جراثيـم الأوبئـة الاجتماعية بالقضـاء على مصادرها ممثلة في شـخصيات طواغيت الوثنيات وطغاة الشـرك من أنصاب الفجور العنيد، وأزلام الكفر العتي- كان لا بد للبحث من الوقوف مع بعض الأحداث التي كانت صورة للجانب الإيجابي من منهج الرسـالة لإبراز ما كان في حناياها من إصلاح واسـتجابة لدواعي الهداية بعد التأبِّي العنيد، لتمكين الذين أضاءت أرواحهم وعقولهم أنوار الحقيقة في منهج الرسـالة الذي عرفوه في سـلوك حاملي أمانته من أفراد وجماعات المجتمع المسـلم، وقد كان من هذه الأحدث المليئة بالعبر المنهجية:

قصة أبي العاص بن الربيع
صهر رسول الله ﷺ

من معالم منهج الرسالة في قصة أبي العاص بن الربيع:

كان أبـو العاص بين أسـرى بـدر وهو زوج ابنة رسـول الله ﷺ الكبرى السـيدة زينب عليها السـلام، وهو رجل من رجالات مكة المعدودين فـي أمنائها وعقلائها وأهل ثرائهـا، وذوي الخبرة في تجاراتها، وأهل المروءات في أشرافها، وهو ابن أخت أم المؤمنين السـيدة خديجة، أمـه هالة بنت خويلد وقد رضيتـه خالته خديجة زوجًا لابنتها الكبرى بنت رسـول الله ﷺ فرضيه رسول الله ﷺ له صهـرًا، وكان يُثني عليه في صهره كمـا ثبت في الصحيح، وكان أبـو العاص ممن أكرمه ومـنَّ عليه النبي، فأطلقـه بغير فداء، ففي

حديث عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة وقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا» فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها.

من مواقف المروءة العربية بين هند بنت عتبة وزينب بنت رسول الله ﷺ:

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ على أبي العاص أن يخلي سبيل زينب، فوفَّى أبو العاص بما عاهد عليه رسول الله ﷺ وبعث رسول الله ﷺ في أثره زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار، وقال لهما: «كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها فتأتياني بها» فخرجا بعد بدر بنحو شهر، منفذين لأمر رسول الله ﷺ. ولما وصل أبو العاص إلى مكة قال لزينب الحقي بأبيك، فخرجت تجهز، قالت زينب رضي الله عنها: فلقيتني هند بنت عتبة فقالت: يا ابنة محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقلت: ما أردت ذلك، فقالت: أي ابنة عم، لا تفعلي، إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك أو مال تتبلغين به إلى أبيك فعندي حاجتك، فلا تَضْطَبِنِي مني[11]، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

وحديث هند هذا يحمل صورة من مكارم العرب في مروءاتها؛

(11) لا تضطبني: لا تستحيي. (المجلة)

لأنهــا كانت صادقة فيمــا قالت، قالت زينب رضي الله عنها: فوالله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

ولما أتمت زينب جهازهــا قدَّم لها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيرًا فركبته، وأخذ قوســه وكنانته وخرج بها نهارًا يقود بها وهي في هودج لها، وتحدث بذلك رجال من قريش، فخرجوا في طلبها فأدركوهــا بــذي طوى، وكان أول من ســبق إليهــا الخبيث الجبان الملعَّن هبار بن الأســود بن عبد المطلــب الفهري فروَّعَها بالرمح وهي في هودجها، وكانت حاملًا فطرحت، وبرك حموها كنانة بن الربيع ونثر كنانته، ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعتُ فيه سهمًا، فتكركر الناس عنه.

وأتــى أبو ســفيان بن حرب فــي جلة من قريش، فقــال له: أيها الرجل، كف عنا نبلك حتى نكلمك، فكف، فأقبل إليه أبو سفيان حتــى وقف عليــه، فقال: إنــك لم تُصِــبْ، خرجتَ بالمــرأة على رءوس النــاس علانيةً وقد عرفتَ مصيبتنــا ونكبتنا وما دخل علينا مــن محمد، فتظن الناس إذ خرجت بابنتــه إليه علانية على رءوس النــاس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذُلٍّ أصابنا، وأن ذلك ضعف منا ووهن؟ ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة.

ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسُلَّها سرًا وألحقها بأبيها.

وقــد عيَّرتْ هنــد بنت عتبة زوج أبي ســفيان النفــر الذي ردوا

زينب لما رجعوا إلى مكة تذكر لهم جبنهم ومهانتهم في الحرب، وتشاجعهم على رد امرأة من سفرها إلى أبيها، فأنشدت تذمهم وتهجوهم:

أفي السلم أعيارًا جفاءً وغلظة

وفي الحرب أشباه النساء العوارك

وأقامت زينب رضي الله عنها لياليَ حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها حموها ليلًا حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه الأنصاري، فقدما بها ليلًا على رسول الله ﷺ.

وفي حديث أبي هريرة قال: بعث النبي ﷺ سرية أنا فيها فقال: «إن ظفرتم بهبار بن الأسود والرجل الذي سبق معه إلى زينب فحرقوهما بالنار» فلما كان الغد بعث إلينا فقال: «إني قد كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يحرق بالنار إلا الله عز وجل، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما».

وقد روى البيهقي في الدلائل في خروج زينب رضي الله عنها من مكة إلى المدينة رواية تخالف رواية ابن إسحاق، فذكر عن عائشة رضي الله عنها من طريق عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ بعث زيد بن حارثة وأعطاه خاتمه لتجيء معه، فتلطّف زيد فأعطى الخاتم راعيًا من رعاة مكة، وأعطاه الراعي زينب فعرفته، وقالت للراعي: من دفع إليك هذا؟ قال: رجل في ظاهر مكة فخرجت زينب ليلًا، فركبت وراء زيد بن حارثة حتى قدم بها المدينة، قال عروة: فكان

رسـول الله ﷺ يقـول: «هي أفضل بناتي؛ أصيبـت فيَّ» فبلغ ذلك علي بن الحسـين: زين العابدين، فأتى عروة، فقال: حديث بلغني أنـك تحدثتـه؟ فقال عروة: والله مـا أحب أن لي ما بين المشـرق والمغـرب، وأنـي أنتقص فاطمة حقًا هو لها، وأمـا بعد ذلك أن لا أحدث به أبدًا.

استجـارة أبـي العاص زينـب وموافقة النبـي ﷺ على إجارتها له:

وقد ذكر ابن إسـحاق أن أبا العاص أقام بمكة كافرًا بعد أن منَّ عليـه النبي ﷺ وأطلقه من غير فداء. واسـتمرت زينب عند أبيها ﷺ بالمدينـة حتى إذا كان قبيل الفتـح خرج أبو العاص في تجارة لقريش إلى الشـام، فلما قفل عائدًا بما معه من أموال قريش لقيته سـرية من أصحاب رسـول الله ﷺ، فأخذوا ما معه وأعجزهم هربًا وجـاء تحت الليل إلى زوجته زينب، فاسـتجار بها، فأجارته، فلما خرج رسـول الله ﷺ لصلاة الصبح، وكبر، وكبر الناس، صرخت زينب من صفة النساء فقالت: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سـلم رسـول الله ﷺ أقبل على الناس فقال: «أيها الناس، هل سـمعتم الذي سـمعت؟» قالوا: نعم، فقال رسـول الله ﷺ: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشـيء حتى سـمعت ما سمعتم، وإنه يجير على المسلمين أدناهم»، ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخـل على ابنته زينب فقال: «أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له».

وبعث رسـول الله ﷺ إلى الناس فحثهم على رَدِّ ما كانوا أخذوه مـن أبي العاص من أموال ومتاع، فردوه عليه بأسـره، لم يفقد منه شـيءٌ، فأخذه أبو العاص، ورجع به إلى مكة، فأعطى كل إنسان ما كان له، ثم قال لهم: يا معشـر قريش، هل لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجـزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًا كريمًا، فقـال أبـو العاص رضي الله عنه: فإني أشـهد أن لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسـوله، والله ما منعني من الإسـلام عنده إلا تخوُّف أن تظنـوا أنـي إنمـا أردت أن آكل أموالكم، فلمَّا أداهـا الله إليكم وفرغت منها أسـلمت، ثم خرج من مكة حتَّى قدم على رسـول الله ﷺ بالمدينة، فرد عليه رسول الله ﷺ زوجته زينب.

وفي كيفية هذا الرد اختلاف واسـع الأكناف بين الفقهاء نشـأ عـن اختلاف الأحاديث والآثار، وقد ذكـر ابن كثير منه في البداية ما سمح له المقام بذكره مع شيء من التفصيل ورد أحكام الفقهاء إلى مصادرها من الأدلة الحديثية.

عرض وتحقيق

هذا مجمل قصة أبي العاص بن الربيع وكان معدودًا في رجالات قومه، ثراء وتجارة، وأمانة، وشهامة، ومروءة، أصهر إلى النبي ﷺ قبل البعثة فتزوج ابنته الكبرى السيدة زينب رضي الله عنها وهي ابنة خالته السيدة خديجة رضي الله عنها، اختارته لها زوجًا ورضيه النبي ﷺ له صهرًا، فكان من أكرم الناس وفاء في عشرته الزوجية وتقديره لهذا الإصهار الأكرم، وكان النبي ﷺ يُثني عليه في صهره كما رواه الصحيح.

لم تُعرَف لأبي العاص حركة في مقاومة الدعوة قط:

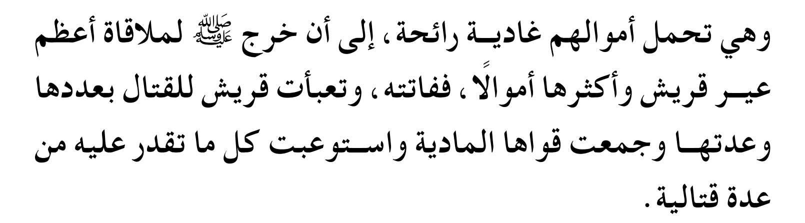
عرف أبو العاص ما اشتهر به النبي ﷺ من مكارم الأخلاق معرفة مخالطة لم يصل إليها أحد غيره من غير أفراد أسرة رسول الله ﷺ الخاصة التي تعيش في كنفه ورعايته.

ولما بُعث رسول الله ﷺ عرف أبو العاص ما كان يدعو إليه النبي ﷺ من الهدى والخير والتوحيد، وطرح الشرك والوثنية وخلع الأنداد والشركاء، ولكنه كان في شغل عن الاستجابة إلى الإيمان بما يدعو إليه رسول الله ﷺ، وآمنت زوجته السيدة زينب مع أمها وإخوتها في أول من آمن بالدعوة لم يسبقهم إلى الإيمان بها أحد قط.

ورأى أبو العاص اشتداد ساعد الدعوة وازدياد من يلبي نداءها، وشهد مع ذلك عداوة قريش لها ومقاومتها بكل ما تملك من طغيان وقوة وإيذاء للنبي ﷺ وأصحابه الذين سبقوا إلى الإيمان به وبدعوته هداية ونورًا.

بيد أن تاريخ مقاومة الدعوة لم يعرف قط موقفًا لأبي العاص شارك فيه قومه في هذه المقاومة بأي لون من ألوانها، وقد كف يده ولسانه عن أصحاب رسول الله ﷺ، وشغله ماله وتجارته وحياؤه من رسول الله ﷺ عن مواقف الشراسة القرشية في مقاومة الدعوة إلى الله، واكتفت قريش من أبي العاص بأن يكون المضارب لها في تجارتها يحمل إليها في رحلاته الأرباح الطائلة، يقول ابن الأثير: «وكان أبو العاص مصاحبًا لرسول الله ﷺ مصافيًا». ولكن الأحداث لم تترك أبا العاص بن الربيع بعيدًا عن ضغطها واحتوائها، فقد اشتد ما بين رسول الله ﷺ وأصحابه وبين قريش من العداوة، وهاجر كثير من المؤمنين إلى الحبشة، وتوالت المحن والأزمات على رسول الله ﷺ وعلى من بقي معه من أصحابه بمكة معتصمين بالصبر والرضا بما ينالهم من العذاب والبلاء في سبيل الحرص على دينهم وعقيدتهم حتى أذن الله بالفرج، وقدمت وفود الأنصار إلى مكة وبايعوا رسول الله ﷺ إذا هو وأصحابه هاجروا إليهم أن يمنعوهم ما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأولادهم.

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة، ثم لحق ﷺ بهم وامتزج المهاجرون بالأنصار في مؤاخاة إيمانية جعلت من كل مهاجريٍّ أخًا لأنصاريٍّ في المواساة والمشاركة والمعاونة والترافق في شئون الحياة، ثم في مؤاخاة اجتماعية تكافلية بين كافة المهاجرين وجميع الأنصار مؤاخاة جعلت من المجتمع المسلم قوة أرعبت قريشًا، وأشجتهم غيظًا ورهبة، وأخذت عليهم مسالك الحياة، ووقفت لهم رصدًا، تصد عيرانهم



وهي تحمل أموالهم غاديــة رائحة، إلى أن خرج ﷺ لملاقاة أعظم عيــر قريش وأكثرها أموالًا، ففاتته، وتعبأت قريش للقتال بعددها وعدتهــا وجمعت قواها المادية واســتوعبت كل ما تقدر عليه من عدة قتالية.

ألوية النصر تخفق على رءوس كتائب جند الله:

والتقــى الجمعــان علــى ميــاه بــدر، ودارت رحى الحــرب في شراســة فاجرة تعبــأت لها حشــود الكفر والغــرور الأحمق، وفي فدائية إيمانية تعبأت لها القلة المؤمنة من جند المجتمع المســلم مســتهدفة إعــلاء كلمــة الله، التي أُرســل بها محمــد ﷺ، ليخرج النــاس من الظلمــات إلى النــور، ودارت رحى القتــال، وما هي إلا جولــة وأخرى حتــى خفقت ألوية النصــر علــى رءوس المؤمنين، ورفرفــت أعــلام الظفر فــوق هامــات المجتمع المســلم، وحلت الهزيمة المنكرة بطغاة الكفر من الوثنيين المشــركين، فقتل الله تعالى صناديد الكفر بأيدي من كانوا بالأمس من المســتضعفين، وألقــى أشــرافهم بأيديهم في صغار وذلة أســرى يقودهم مولى من موالي رسول الله ﷺ، ويســوقهم الرعب من ورائه ليسمعوا قضاء رسول الله ﷺ فيهم.

وكان أبو العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ من بين الأسرى الذين لم يُســمع لهم في المعركة صوت، ولم يُعرف لهم رأي، ولا شُوهدت لهم في قتال جولة.

قضـاء الله فـي الأسـرى يطبقـه رسـول الله ﷺ أفضل تطبيق:

ووصل الأسـرى إلـى المدينة المنورة، وقضى فيهم رسـول الله ﷺ بقضائه الذي أنزل الله عليه وحيًا يتلى في قوله - تعالى- :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ (محمد : ٤)

ولم يكن القتل لمن أُسر مشروعًا إلا لمن عظم كفره وطغيانه، وعتـا في فجوره عتوًا حجب عنه التوبـة بالإيمان، كالذي كان من النضـر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط اللذين أمر رسـول الله ﷺ بقتلهما صبرًا في الطريق من بدر إلى المدينة.

وفـي هذا القضاء الـذي أنزله الله تعالى على رسـوله ﷺ وحيًا يتلى في شـأن الأسرى والتصرف في أمرهم جانب من أهم جوانب منهج الرسـالة الخاتمة التي نزلت على محمد خاتم النبيين ﷺ، لتخـرج الناس بمنهجها فـي الهداية من ظلمات الضلال وشـرور الإفساد الاجتماعي إلى نور الحق والخير والإصلاح.

ذلـك أنـه كان ممن شـملهم الأسـر فـلا ينفلتون إلا بفـداء أو مَـنٍّ - أبـو العاص بن الربيـع صهر رسـول الله ﷺ، وبدأت قريش تفادي أسـراها، فأرسلت السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ وزوجة أبـي العاص بمـال تفديه به، وبعثـت مع المال قـلادة كانت أمها السـيدة خديجة رضـي الله عنها أهدتهـا إليها فأدخلتهـا بها على

زوجها لتتحلى بها، فلما رأى رسول الله ﷺ قلادة ابنته رق لها رقة شديدة، إذ كانت هذه القلادة الكريمة مبعث ذكريات أبوية عنده ﷺ، وذكريات زوجية، وذكريات أسرية وذكريات عاطفية، قبل أن تأتيه رسالة الله بمنهجها الإصلاحي.

الذكريات تتوالى على النبي ﷺ فيأخذه الحنين إلى ابنته الكبرى:

فالنبي ﷺ أب، له من عواطف الأبوة أرفع منازلها في سجل المكارم الإنسانية، وأشرفها في فضائل الحياة، فتذكر ﷺ برؤيته هذه القلادة - وهي أغلى شيء في حياة ابنته وذكريات مناسبتها، وذكريات من أهدتها إليها، ولعلها لم تبعث بها مع مال الفداء إلا لتحرك في نفس أبيها سيد الموقف في فداء الأسرى أنبل عواطف الأبوة الرحيمة، ولتثير في نفسه ﷺ أسمى مشاعر الحب الأبوي المشفق، ولتضع في بناء الوفاء الزوجي لبنة ربما لم يكن عندها ما يفي بقدرها، والنبي ﷺ أوفى البرية بمكارم الأخلاق.

وهو ﷺ زوج لأوفى زوجة منحه الله منها الولد وحرمه إياه من غيرها توكيدًا لأشرف روابط الحياة بين البشر.

وها هي ذي ابنته الكبرى تبقى في مكة وحيدة مع زوجها مسلمة، وهو على كفره لم تفكر قط في مفارقته، لأنه كان حفيًا بها، وفيًا في معاشرتها، محبًا لها، معتزًا بها، ويؤسر زوجها في أشراف قومه، ويتطلب الموقف فداءه، فترسل قلادتها فداء له.

ويـرى النبي ﷺ هـذه القلادة فتتنادى إليـه الذكريات، وفيها ذكريات السيدة خديجة وفرحها وهي تدخل ابنتها على ابن أختها هالة بنت خويلد، وتحليها بأحسـن ما عندها من الحلي، وتزينها بقلادة تهديها إليها في فرحة العمر، فتقدمها زينب في فداء زوجها طيبة بها نفسها وفاء لحياتها الزوجية مع ابن خالتها، فيعظم ذلك في نظر النبي ﷺ.

وهو ﷺ أب وكافل لأسـرة قاعدتها العريضـة أولاده، وقمتها زوجـه وزيرة الصدق، ومأنس القلب، ومفرجة الأزمات والشـدائد عنه بما أنعم عليها من عقل رشـيد، ورأي سديد، وحب لم تعرف الحياة له مثيلا في صفائه وطهره وتضحياته.

فـإذا رأى ﷺ هـذه القلادة الكريمة - بعـد أن غابت عن نظره رَدَحًـا من الزمن تخللته أحداث جسـام - ذكرته بما كان له ﷺ - قبل أن يحمل عبء الرسـالة والدعـوة إلى الله - في هذه الفترة مع أسـرته من ود هامس، وحب شـفيف، ومشـاركة لهم في حياتهم وعيشهم الهادئ الوادع المبتسم للحياة.

وهـو ﷺ في روحانيتـه مخلوق من نور الرحمـة التي جعلها الله بؤرة لأشعة أنوار أزكى المشاعر وأسمى العواطف الإنسانية النبيلة.

وهـو ﷺ فـي بشـريته مخلوق مـن أطيـب وأطهر مـا خلقت منه حفائظ الأرواح من أجسـام البشـر، فهـو ﷺ الطيب المبارك المطهر، حسـا ومعنـى، روحًا وبدنًـا، فالرحمة الودود سـجيته، والرأفة المشفقة طبيعته، والحنان الحنون نحيزته.



عواطف الحنان وإشفاق الأبوة طبيعة بشرية:

فإذا رأى ﷺ قلادة فرحة ابنته بين مال الفداء لزوجها الوفي الكريم تواثبت إلى حنايا نفسه الكريمة المكرمة أسمى مشاعر الرحمة، وتنزلت على قلبه الرحيم وابلاتُ غيث الرأفة[١٢] في أطهر قطرات الحنان الأبوي، وتواكفت على إحساساته نسائم الإشفاق الأكرم، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطف الحنان والحنين، وتتابعت على وجدانه ذكريات حب الولد من البنات والبنين.

هذا الحب الذي صار بعد أن تنزلت أنوار الرسالة على قلبه ﷺ قبسًا من نور الرحمة الشاملة لكل من في الحياة، وكل ما في الحياة من صامت وناطق، وعاقل وغيره، وهي الرحمة التي أرسل بها ولها محمد ﷺ، فغمرته رقتها المنبعثة من وجدانه الأبوي، فتوجه إلى أصحابه رضي الله عنهم متلطفًا يطلب إليهم في رجاء الأعز الأكرم، رجاء يدفعهم إلى العطاء، ولا يسلبهم حقهم في الفداء، لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق وهو في أيديهم يملكون التصرف فيه، فقال لهم: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا».

وهذا أسلوب من أبلغ وألطف ما يسري في حنايا النفوس الكريمة، فيطوعها إلى الاستجابة الراغبة الراضية رضاء ينم عن الغبطة والبهجة.

(١٢) الوابل: المطر الشديد. والغيث: المطر. والمراد بقوله: «وابلات غيث الرأفة»: الرأفة الشديدة. (المجلة)

فالأساس في الطلب المتلطف إطلاق الأسير الذي هو أسيرها، بهـذه الإضافـة التي تـكاد تجعل من التلـطف اسـتعطافًا شـفيعًا، لأنهـا إضافـة خاصة رفعت من شـأن هذا الأسـير وأدخلته في إطار المخصوصين بالرعاية، وأكد هـذا المعنى أن هذا الإطلاق (لها) وهـذه حفاوة في التعبير تزيد في إبراز الرغبة في إطلاق أسـيرها، المشـعرة بالاسـتعطاف ممـن له حق الأمـر النافـذ، لإيحائها بأن صاحبـة هـذه القـلادة ابنتـه ﷺ التي أفـردت عن إخوتها وسـائر أسرتها بالبقاء وحيدة بمكة، تعاني مرارة الوحدة والبعد عن حنان الأبوة الرحيمة.

وإذا تحقق هذا الأساس جاء الترغيب في استكمال نعمة الامتنان في إطلاق أسيرها، فقال ﷺ: «وتردوا عليها الذي لها» والذي لها هو محور العطف والذكريات المتوالية من الماضي البعيد القريب، هو قلادة فرحة العمر التي أهدتها إليها أمها في أعز مناسبة، وهذه القلادة هي التي أثارت في نفسـه ﷺ الرقة الشديدة لابنته، ولهذا لـم يقـل ﷺ لأصحابه: وتـردوا عليها ما بعثت به مـن مال لفداء زوجها لأن المال لم يبلغ في هذه المناسـبة المليئة بالذكريات من المكانة ما يسـتدعي كل هذا التلطف والاسـتعطاف في طلب رده عليهـا، ولعل المال مال زوجها أرسـلته لتفديـه به، ولكن القلادة (لهـا) وضعًا وطبعًا وملكا وذكـرى، ولن تبلغ فجيعتها في المال شيئًا من فجيعتها في قلادتها، هدية أمها لها في بناء زوجها بها.

ولهذا جاءت إجابة الصحابة رضي الله عنهم عن تسـاؤل رسول الله ﷺ سـريعة محققة لكل ما يبتغي منها، فقالوا: نعم، يا رسول الله فأطلقوه، وردوا عليها مالها وقلادتها.

وكان رسـول الله ﷺ قد أخذ على أبي العاص حين سـرَّحه إلى مكة أن يخلي سبيل زينب لتحلق به، وتكون مع أخواتها في رعاية أبوية تعوضها عن مرارة الفرقة والبعد فيما خلا من الزمان.

وكان أبو العاص على سجيته وفيًا كريمًا، فإنه لم يكد يصل إلى مكة ويرى زوجته شاكرًا لها موقف النبل منه في أسره وفدائه بأعز وأغلى ما تملك حتى أسرع إلى تنفيذ ما عاهد عليه رسول الله ﷺ من إخلاء سـبيل زينب لتلحق به ﷺ، وتعيش مع إخوتها في كنفه مغمـورة بحبه الأبوي، فقال لهـا: الحقي بأبيك، فلم تملك زينب نفسـها من الفرحة. فخرجت تجهز لسـفرها، وتعد لهذا السـفر الطويـل عدته ممـا يرفق بها ويسـهل عليها وعثـاء الطريق، وقد أثنـى عليه النبـي ﷺ لوفائه، فقال: «حدثنـي فصدَقني، ووعدني فوفـى لـي» قالت زينب رضـي الله عنها: فلقيتني هنـد بنت عتبة، فقالت لي: يا ابنة محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقلـت: مـا أردت ذلك، فقالت هند – وقـد فهمت ما في رد زينب من التخفي: أي ابنة عم، لا تفعلي – أي لا تتخوفي مني، وتكتمي علـى أمرك لمـا بين قومنا من مواقف مضطغنة – إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك، أو مال تتبلغين به إلى أبيك فعندي حاجتك، فلا تضطبني منى – أي لا تجعلي أمرك في ضبنك مستورًا عني – فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

هـذا الموقف الذي وقفته هنـد بنت عتبة من زينب بنت محمد ﷺ من أعجب العجب، ولكنه في ذرى الشـرف لا يسـتغرب من أعليـاء بيوتـات العرب، وهو سـنن مسـلوك في مـكارم أخلاقهم مستعذب.

فهنـد صاحبة هذا الموقف النبيل المتسـامي بنبله فوق مألوف الطباع البشرية هي التي قُتل أبوها وأخوها وعمها بالأمس القريب فـي بـدر، ولا تزال دماؤهم علـى أرض بدر لم تجـف، قتلهم ثلاثة هاشميون من عمومة زينب رضي الله عنها، وكأنما سيوفهم تحش أحشـاء هند حشـا، وهي تعرض على زينب أشـرف مكارم المرؤة فقد أحرقوا كبدها، وأشـعلوا نار الحقد المغيظ الحانق في قلبها، وعاشـت أيامها تترقب فرصة الثأر الذي يشفي غليلها، ويستطفئ أوار غلها حتى صنعت ما صنعت بحمزة في غزوة أحد، ثم أسلمت وكانت متكلمة المبايعات من المسـلمات، ولكن هند بنت عتبة بنـت أبيها وسـلالة أمية الذيـن لا ينامون على وتـر، ولأبيها عتبة مكارم جاهلية مشـهرة، وكان لا يخلط الأحداث والوقائع، فيدفن المكرمات حتى لا يرى إلا الضغائن والدماء.

ومن ثم كانت هند صادقة مع نفسـها فـي ضغنها، وصادقة مع نفسـها في مكرمتها. قالـت زينب رضي الله عنها: فـوالله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

وهذه شهادة لا ترد، لأنها شهادة عليم شهيد، وللصدق معالم تحف به فلا تسـتطيع حوالك التصنع أن تخفيه وراء أسـتار المكر الكائـد والدغل المخـادع[١٣]، فهي شـهادة إذا وضعت في ميزان مكارم الأخلاق والاعتراف بالفضل لأهله مع شـدة شـوكة العداوة المضطغنـة، فإنهـا لا تعجز أن توزن مكرمة النبـل في موقف هند بنت عتبة.

---

(١٣) الدغل: الفساد والشر. (المجلة)

فهند كانت صادقة مع نفســها وموروث بيتهــا وقومها، وزينب كانــت صادقة مع طبيعتها ومرباهــا، ولما أتمت زينب جهازها كان زيد بن حارثة في انتظارها خارج مكة، فخرجت متخفية تحت أستار الليل فحملها وراءه، وسار بها يطوى الليل والنهار، ويقطع الفيافي والقفــار، حتى أقدمها على أبيهــا ﷺ بالمدينة، وبقيت مع إخوتها مستظلة بظلال الحنان والأنس في رعاية أبوية مشفقة حانية.

وأقام أبو العاص بمكة على دين قومه حتى إذا كان قبيل الفتح، خــرج في تجارة قريش، فلقيته ســرية من أصحاب رســول الله ﷺ وهــو في قفولــه فأخذوا جميع مــا معه، وأعجزهــم هربًا حتى جاء تحــت جنح الليل إلى زينــب رضي الله عنها فاســتجار بها فأجارته دون علم من النبي ﷺ، فلما خرج ﷺ لصلاة الصبح وكبر، وكبر الناس صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

ولما سلم رسول الله ﷺ من صلاته أقبل على الناس فقال: «أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟» قالوا: نعم، فقال ﷺ: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء حتى سمعت الذي سمعتم، وإنه يجير على المسلمين أدناهم».

ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال لها: «أي بنية، أكرمــي مثواه ولا يَخْلُصَنَّ إليك، فإنــك لا تحلِّين له»، فقالت: إنه قد جاء في طلب ماله، فجمع رســول الله ﷺ تلك الســرية، وقال: «إن هذا الرجل منا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالًا، وهو مما أفاء

الله عليكم، وأنا أحب أن تحسنوا، وتردوا عليه الذي له، فإن أبيتم فأنتم أحق به» فقالوا: بل نرده عليه، فردوا عليه ماله أجمع.

كان لا بد إذن أن تخرج السيدة زينب من مكة لتلحق بأبيها ﷺ، فتجهزت وخرجت مع زيد بن حارثة حتى أقدمها المدينة، وهناك عاشت مع إخوتها في كنف الحنان الأبوي الرحيم.

وتعطفت الأقدار، وساقت أبا العاص بن الربيع إلى المدينة غير مختار، فاستجار بزينب فأجارته دون علم من النبي ﷺ.

ولما خرج النبي ﷺ لصلاة الصبح وكبر، وكبر الناس صاحت زينب من صفة النساء بجوارها لأبي العاص، وأقر النبي ﷺ جوارها له، وأخبر الناس بأعظم قاعدة من قواعد المواساة بين أفراد وجماعات المجتمع المسلم كما تضمنها منهج رسالة الإسلام، مبينًا لهم أن المسلمين وحدة إيمانية تكافلية لا تفرقها المظاهر، وأنه يجير عليهم أدناهم.

تشريع يمثل جانبًا من جوانب منهج رسالة الإسلام:

وقد جاءت هذه الوحدة الاجتماعية التكافلية في حديث اتفق المحدثون على صحته، يقول فيه رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم».

ثم بعد أن أعلن رسول الله ﷺ هذا الجانب المشرق في منهج رسالة الإسلام أراد أن يلفت نظر المجتمع المسلم إلى ما جاء في دستور رسالة الإسلام من تشريع يتعلق بالرابطة الزوجية بين

زوجين، زوجة مسلمة، سواء أكان إسلامها سابقًا على الزواج أو حادثًا بعده، وزوج كافر كذلك.

وهذا التشريع المحقق لجانب اجتماعي من جوانب منهج رسالة الإسلام أن المسلمة لا تحل للكافر، فلا ينعقد زواج حادث، ولا يستمر زواج كان موجودًا بين امرأة مسلمة ورجل كافر، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (الممتحنة: ١٠) وهذا النص وإن كان واردًا على سبب خاص في صورة خاصة فهو عام شامل لتحريم زواج امرأة مسلمة من رجل كافر.

وقد بين هذا التشريعَ النبيُّ ﷺ بياناً عمليًا، إذ دخل على ابنته زينب رضي الله عنها بعد أن سمع أنها أجارت أبا العاص بن الربيع، فأقر جوارها للوحدة الإيمانية بين كافة المسلمين، وأعلنه على سمع مجتمعه المسلم، وأوصاها بإكرام أبي العاص باعتباره ضيفًا ذا رحم وقربى قريبة، وله جوار أوجب له حقوقًا من الإكرام وحسن المعاملة، فقال لها: «أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له» لأن الإسلام في تشريعه المنظم للحياة الاجتماعية قد فرق بينهما، وكأنما لمحت زينب رضي الله عنها من جو القصة أن أبا العاص جاءها واستجار بها بحكم ما كان بينهما من رابطة الزوجية التي تستلزم حقوقها وواجباتها، فأسرعت إلى إخبار أبيها ﷺ أن أبا العاص رجل مشغول بمروءته وأمانته، وأنه إنما جاء إليها مستجيرًا بها يطلب ماله الذي أخذته منه السرية ليرده إلى أصحابه وفاء بحق الأمانة.

وطابت نفس رسـول الله ﷺ بما سـمع منها، وأرسل في جمع رجال السرية، وأخبرهم بمكانة أبي العاص منه ﷺ، وأنهم أصابوا منـه مالًا، كان فيئًا لهـم، فهو حلالٌ لهم طيب، ولكن رسـول الله ﷺ يحب أن يحسنوا إلى أبي العاص، ويردوا عليه ما أخذوه منه، ولـم يكن ذلـك أمرًا منه ﷺ ولكنه رغبة جعلهـا موضع اختيارهم وموافقتهـم؛ لأن المـال الذي أخـذوه أصبح مالهم وهـم أحق به، فقالوا: بل نرده عليه، فردوه عليه أجمع.

تصـرف حكيم انتهـى بإسـلام أبي العاص وجمع شمله بزوجه:

وفي هذا التصرف الحكيم جوانب من منهج رسـالة الإسـلام، خلقيـة واجتماعية وتشـريعية، كشـفت عـن تطبيقـات المنهج العملية، وأصبحت مبادئ يُرجع إليها في مسـتقبل حياة المجتمع المسلم.

وعاد أبو العاص بأموال تجارة قريش التي عقدت بناصيته أمانتها فـي وقت اسـتحكمت فيه شـدائد الأزمات بينها وبيـن المجتمع المسـلم، لم يفقد منها شـيئًا، فكان موفور الكرامـة، وفيًا أمينًا، وأعطـى كل إنسـان ما كان له من مـال في هذه التجـارة، ثم نادى فـي قريـش علانية، فقال: يا معشـر قريش، هل بقـي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا، قد وجدناك وفيًا كريمًا.

وعنـد ذلك أعلن أبو العاص بن الربيع إسـلامه وشـهد شـهادة

الحق، وقريش مجتمعون عليه، فقال لهم: والله ما منعني من الإسلام عند محمد ﷺ بالمدينة إلا تخوف أن تظنوا أني أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت أسلمت.

ثم خرج أبو العاص رضي الله عنه من مكة ميممًا المدينة، إذ قدم على رسول الله ﷺ مسلمًا فازداد له ﷺ إكرامًا، ورد عليه زوجته وابنة خالته السيدة زينب رضي الله عنهما.

هذا موقف يمثل جوانب من منهج رسالة الإسلام، كان رسول الله ﷺ فيه هو الوجه المشرق الذي أضاء الطريق أمام مسيرة الدعوة، وكانت ابنته زينب رضي الله عنها تمثل مفتاح الموقف الذي انطلقت الحياة من أبوابه، وكان أبو العاص بن الربيع المحور الذي دارت الوقائع والأحداث من حوله.

فرسول الله ﷺ بسط يد مكارمه لهذا الرجل الذي كان صاحبه وصفيه قبل بعثته، وفتح له طريق الهداية بعد بعثته، فوفى له وفاء بوفاء، وبوأه منه منزلة المصاهرة، وهي منزلة لا تكون إلا بين متصافيين، ووقف منه موقفًا حفظ عليه كرامته بين قومه، وأقر جوار ابنته له حتى يطمئن وهو متطلع إلى رد ما أخذ منه ليرده على أصحابه، وتحقق له ما أراد، وعاد إلى مكة مرفوع الرأس، موفور الشخصية، وأعطى الحقوق لأصحابها، حتى إذا لم تبق عليه تبعة لأحد أعلن إسلامه الذي كان يضمره منذ أن رأى مكارم النبي ﷺ تغمره، ومنذ أن رأى وفاء ابنة خالته يحقق له آماله.

لم يعلن أبو العاص إسلامه يوم أن كان بالمدينة محفوفًا بالرعاية

من رسول الله ﷺ خشية قالة السوء، وأن قريشًا تظن به أنه فعل ما فعل ليأكل أموالهم بالباطل.

فلما فرغ من أداء أمانته واستبرأ ذمته أعلن إسلامه، وأرضى رسول الله ﷺ فكافأه ورد عليه زوجته الوفية الحبيبة.

وهكذا كانت قصة أبي العاص بن الربيع صورة لكثير من جوانب منهج رسالة الإسلام بدءا ونهاية في إطار من التطبيق العملي في الوقائع والأحداث، التي برزت في صورة كريمة انتهت بأكرم موقف جمع بين حبيبين وفيين في ظلة من الدين الحق تقطر صفاء، وحبًا، ووفاء.

قصة عمير بن وهب

في طي الحكم الإلهية قصة أفجر غدر تنتهي إلى أبر أعمال الإيمان:

هذه القصة من قصص الأحداث والوقائع التي شهدتها غزوة بدر في بدئها ونهايتها صورة تمثل شراسة الفجور الوثني، والشرك العتي، واستمرت بعد أن طوفت بمكة لتدبير أسوأ المكر وأخبث الكيد للفتك برسول الله ﷺ، ولكنها تنتهي إلى نهاية كانت قرة عين المجتمع المسلم وقرة عين الدعوة إلى الله، ومحط رضا رسول الله ﷺ واغتباطه، إذ اتخذت وضعًا سياسيًا أحكمه النبي ﷺ موجهًا من الله بتوفيقه وتسديده، فجعلت من أحد مردة شياطين قريش، وأشدهم عداوة للنبي ﷺ، وأخبثهم فجورًا في

مقاومة الدعوة ونشـر الرسـالة، وأعطش فُجَّارها إلى سـفك دماء المجتمع المسـلم -أقواهـم إيمانًا، وأخلصهـم يقينًا، وأنجحهم عملًا في فتح الطريق أمام مسـيرة الدعـوة إلى آفاق الحياة وجذب مـن كانوا يشـتطون فـي مقاومتها ووضـع العوائـق والعقبات في طريقها، وطريق ما جاء به رسـول الله مـن الهدى والخير، وعداوة من آمن بهذا الهدى إيمانًا جعل من حاملي أمانته قوة تدعم مسيرة الرسـالة ونشـرها في آفاق الحياة، فكانت ثمـرة جنية من ثمرات بدر التي أينعت على يدي عمير بن وهب الجمحي القريشي.

وكان عميـر بـن وهب من ذوي الشـرف الجاهلي، لـه ذكر في قومه، يعرفونه بالدهاء والتعقل المشوب بالتشيطن، مما جعله أحد صناديد قريش وأبطالها الذين تئل إليهم في الشدائد والملمات.

خـرج عميـر هـو وابنه وهـب بـن عمير مـع المشـركين في حشودهم الفوارة بالغيظ المحنق على المجتمع المسلم لتعرضهم إلى عيرانهم، وكان عمير ممن عصمت بهم قريش سياسة تدبيرها فـي حرب النبي ﷺ وأصحابه في بـدر، فوكلت إليه أن يحزر لهم أعداد جند الله، ويعرف قوة شوكتهم، وما يحملون من عدة قتالية.

وامتطى عمير صهوة جواده، وجال به حول معسكر المسلمين، يذهـب ويجيء، ويعاوِد الكـرة بعد الكرة، حتـى ضبط لهم عدد عسكر المسلمين ضبطًا أتى على واقعهم العددي، ولكنه رأى في وجوه أنصار الله وجوها كأنها الحيات تتلمظ ولا تتكلم، ورأى في سـيوفهم الموت الناقع، فرجع إلى قريـش ينبؤها بالخير اليقين، فاسـتهتروا بقولـه الذي وصـف لهم به أنصـار الله وقالـوا له: دع

هــذا عنك، واذهب فأوقد نار الحرب وأشــعل فتيلها، وحرض بين القوم، فأخذته العزة بالإثم، ورمى بنفسه عن صهوة جواده وألقاها بين المسلمين، وكان أول من أنشب الحرب.

ودارت رحى المعركة تطحن حشود الكفر تحت سفالها طحنًا أتى على صناديدهم قتلًا، وأشــرافهم أسرًا، وعلى غوغائهم هربًا، وكان عميــر بن وهب ممــن فر إلى مكة هربًا فوجــد خبر الهزيمة قد ســبقه على لسان الحيسمان، ووجد الناس يتحدثون ويذكرون أســماء مــن قُتل من صناديدهم ومن أُســر من أشــرافهم، وكان في القتلــى أمية بــن خلف، وابنه علي بن أميــة، وكان صفوان بن أمية جالسًا في الحجر يسمع فلا يصدق، وجاءه عمير بن وهب فجلس إليه، فســمعه يقول: قبح الله العيش بعد قتلى بدر، فقال له عمير: أجل، لولا دَيْن علي لا أجد قضاءه وعيال لا أدع لهم شيئًا لخرجت إلــى محمد فقتلته إن ملأت عيني منــه، إن لي عنده علة أعتل بها، أقول: قدمت على ابني هذا الأسير.

أفّ، ثــم أف لتشــاجع المهــزوم المعنَّى، وأف ثــم أف لتكذب المغــرور المضنــي، أين كانت هذه الشــجاعة البرصــاء المهيضة وقــت معمعة الوغى في ميدان المعركة وســيوف أنصار الله تقطف رءوسًــا قد أينعــت وحان قطافها؟وتطلق ســيقان المفزعين للفرار هربًا من قعص السيوف؟

والتقــط صفوان بن أمية المُــرْزَء بقتل أبيه وأخيه كلمات عمير وهي تســيل مــع لعابه فاهتبلها فرصة ســانحة وفــرح بهذا اللعاب المتســاقط رعبًــا، وقــال لابن عمه عميــر يغريه ويحرضــه، فعليّ

دينُـك أقضيه عنك وافيًا، لا يتبعك بشـيء منه أحد قط، وعيالك مع عيالي، أنفق عليهم كما أنفق على عيالي.

وتكفـل صفوان بتجهيز عمير، وأمر له بسـيف بالغ في صقله وشحذه وأشبعه سمًا زعافًا، ونهض عمير نهضة المكظوم المورط، وهو يودع صفوان متثاقلًا، يعده ويمنيه، وما يعده إلا الغرور.

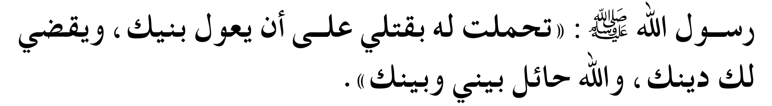
ووصل عمير إلى المدينة ونزل بباب المسـجد، واعتقل بعيره وتوشـح سـيفه وهـم بالدخول على رسـول الله ﷺ فـرآه الألمعي القوي الأمين عمر بن الخطاب، وكان يجلس إلى نفر من الأنصار، يتحدثـون عن وقعة بدر ويذكرون نعـم الله عليهم فيها، وما أراهم الله فـي عدوهـم، ففزع عمر رضـي الله عنه إذْ رأى شـيطان قريش عمير بن وهب يهم لدخول المسـجد، وسـيفه فـي رقبته فصاح: هـذا عدو الله عمير بن وهب الذي حزرنا للقوم، والذي أشـعل نار الحرب، ثم نهض عمر فدخل على رسـول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هذا عمير بن وهب، قد دخل المسجد متقلدًا سيفه وهو الغادر الفاجر، يا رسول الله، لا تأمنه على شيء، فقال النبي ﷺ: «أدخله علـي» فخـرج عمر فأمر أصحابـه: أن ادخلوا على رسـول الله ﷺ واحترسوا من عمير، وأقبل عمر على عمير، وأخذ بحمالة سيفه، ولببه، ودخل به على رسول الله ﷺ وسيفه في رقبته، فقال عمير، أنعموا صباحًا، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك، بالسـلام، تحية أهل الجنـة، فما أقدمك يا عمير؟» قال: قدمت في أسيري، ففادونا في أسيركم، فأنتم العشيرة والأهل.

أف، ثم أف للكذب والكذابين على الله وعلى رسوله ﷺ وأف

ثــم أف للجبــن والجبناء الرعاديد، وأف ثــم أف للغدر والغادرين، وأف ثــم أف للخيانة والخائنين، وأف ثــم أف لتدبير المنهزمين، وأف ثم أف للمردة الشياطين المنقلبة حملانًا وادعة مهانة وذلًا.

وتوهــم عمير أنه ملك الحيلة، والحجــة، وأنه قد وصل، فقال له رســول الله ﷺ: «فما بال الســيف في رقبتك؟» ففزع عمير، ثم أفاق من سكرته مع صفوان بالحجر، لأن من يجيء في فداء أسير، ويريد من آســريه وهم العشــيرة والأهل أن يتخففوا في فدائه ماله وللســيف يدخل به على من يريد منه أن يتلطف في فداء أســيره؟ ولكن عميرًا أذهل عن نفســه وعن سيفه وعن مخادعته، وأبان عن خبيئه، فقال دون وعي منه: قبحها الله من ســيوف فهل أغنت عنا من شــيء، إنما نســيته حين نزلت، إنها سيوف من خشب نخرته الســوس، فقد كذبتنا في المعركة حتى هزمنا هزيمة أدخلت على كل بيت في قريش نارًا أحرقت الأكباد.

فقال رســول الله ﷺ وقد رأى شــيطنة عمير الجاهلية تتهاوى، ويهــوى هو معها: «اصدقني مــا أقدمك؟» فقال عمير وهو لا يزال متشبثًا بالكذب، يردد أكذوبة الأسير: قدمت في أسيري، وتوهم عميــر أن دهاءه يســتطيع أن يقلب الســماء أرضًا والأرض ســماء، ولكــن رســول الله ﷺ كان قد أنبأه الله بمــا كان بينه وبين صفوان مــن مناجاة بالإثم والعدوان وهما في الحجر بمكة، فقال له: «فما الذي شرطت لصفوان بن أمية في الحجر؟» ففزع عمير إذ رأى أول خيط الفضيحة يأخذ بحلاقيمه ويعري سوأة كذبه، ولكنه تماسك وتخيلها كلمة تقال، فقال متكذبًا: ما شــرطت له شــيئًا، فقال له



رسول الله ﷺ : «تحملت له بقتلي على أن يعول بنيك، ويقضي لك دينك، والله حائل بيني وبينك».

وهنا تنزلت على عمير قطرات غيث الهداية من سماء الإيمان، فانقلب في لحظة من شيطان مريد إلى مؤمن رحيم، فقال وهو بين يدي رسول الله ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا رسول الله، كنا نكذبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وأن هذا الحديث بيني وبين صفوان في الحجر لم يطلع عليه أحد إلا الله تعالى، والحمد لله الذي ساقني هذا المساق، وقد آمنت بالله ورسوله، ففرح المسلمون حين هداه الله.

فقال له رسول الله ﷺ متلطفًا به، مسرورًا بإيمانه: «اجلس يا عمير نؤانسك - وفي رواية: نواسيك» ولكل من الروايتين احتمال صحيح، فرواية نؤانسك من الأنس والمؤانسة بعد الوحشة والمواحشة، وقد أصيب عمير في موقفه بما أذهله عن نفسه وأوحشه بما فقد من أنسه، فأراد النبي ﷺ أن يتلطف به بعد إسلامه ليزيل وحشته ويريه مدى ما يبلغ الإخاء الإيماني بين المؤمنين، وهذا من مكارم الأخلاق التي يضعها منهج الرسالة في طلائع آدابه وتشريعاته.

ورواية (نواسيك) من المواساة، وهي الإفضال في المودة والعطاء والبذل والترافق والمعاونة، وعمير كان في أشد الحاجة إلى ما يرفقه ويعينه ويوادده، ويبذل له من الإحسان المعنوي والمادي بعد الذي تحمله في سفرته وما نزل به فيها من مفاجآت لم تكن في حسبانه وتقديره.

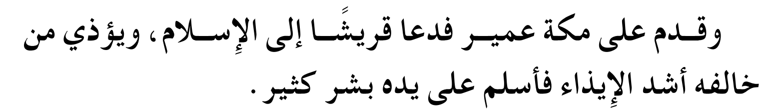
ثم التفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه، وقال لهم: «علموا أخاكم القرآن» وفي هذه الجملة الموجزة آيات من آيات منهج رسالة الإسلام، فعمير قد صار أخًا لجميع المؤمنين، والإخاء الإيماني أساسه القرآن، فإشعاره بالإخاء الإيماني مؤانسة ومواساة، وربط هذا الإخاء الإيماني بتعليم القرآن ربط للمؤمنين عامة بشرائع دستورهم الأعظم.

ثم أمر رسول الله ﷺ بإطلاق أسيره دون فداء، وهنا قد استقرت مشاعر عمير الداخلية وهدأت نفسه، وذاق حلاوة الإيمان، ونظر إلى ماضيه في ميزان حاضره، فرأى أنه في أشد الحاجة إلى غسل رجس هذا الماضي بماء العمل الجاد في سبيل الدعوة إلى الله، ليكفر عن نفسه أسوأ ما عمل في ظل الوثنية الطاغية، وفجور الشرك، فقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إني كنت جاهدًا، ما استطعت على إطفاء نور الله، والحمد لله الذي هداني من الهلكة، فائذن لي يا رسول الله، فألحق بقريش، فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لعل الله أن يهديهم ويستنقذهم من الهلكة.

فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة وكان صفوان بن أمية لا يزال يتكعكع في ظلمات الكفر(١٤) مستشرفًا لأخبار عمير فيما عاهده عليه واشترطه له، ويقول لقريش أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر، وجعل يسأل كل قادم عليه من المدينة، هل كان بها حدث؟ حتى قدم عليه رجل فأخبره أن عميرًا أسلم!.

---

(١٤) المراد من قوله يتكعكع في ظلمات الكفر: يتردد في ظلمات الكفر يقولون: تكعكع في كلامه تحبَّس. (المجلة)



وقــدم على مكة عميــر فدعا قريشًــا إلى الإسـلام، ويؤذي من خالفه أشد الإيذاء فأسلم على يده بشر كثير.

ومر عمير بصفوان وهو في الحجر، فقال له عمير: أنت سـيد من ساداتنا، أرأيت الذي كنا عليه من عبادة حجر والذبح له، أهذا دين؟ فأعرض عنه صفوان ولم يكلمه.

وقـد اسـتأمن عمير النبي ﷺ لصفوان بـن أمية حين هرب يوم الفتـح فأمنـه رسـول الله ﷺ وبعث إليـه بردائه أو بردتـه أمانًا له فأسلم صفوان بعد لأي، وحسن إسلامه بعد أن ظل مدة من المؤلفة قلوبهم على الإيمان بالعطاء الكثير الغامر حتى قال: أشـهد أنه لا يعطي هذا إلا نبي.

قصة فداء أسرى بدر

عرض القرآن الكريم لقصة فداء أسرى بدر - وهي قصة استحوذت على قدر كبير من البحث في كتب المغازي والسير - فذكرها في خمس آيات من سورة الأنفال، وهي السورة التي استأثرت بأحداث هذه الغزوة العظمى، من مبتداها إلى نهايتها، شاملة لمقدماتها ونتائجها، مستوعبة لوقائعها وأحداثها التي كانت قصة الأسرى من خواتيمها.

وفي هذه الآيات الخمس يقول القرآن الكريم: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٧ - ٧١).

تحقيق تحليلي في معاني آيات الأسرى وبيان هدفها:

وهذه الآيات الخمس تجري في سياقها على أساس الاختصاص في تحقيق أكثر من معنى واحد تستقل به كل آية من آياتها، وإن

كان الإطار العام للمعاني والحقائق التي سيقت لها الآيات موحد الاتجاه في ظل قصة أسرى بدر، وهي أول قضية تعالج أثرًا من أهم آثار الحرب بين المجتمع المسلم وأعدائه الكافرين، وهو أثر تأصيلي لتشريع دائم في حياة المجتمع المسلم ما بقي هذا المجتمع قائما بواجبات تكاليفه القيادية في نشر رسالة الهدى والحق التي بعث بها محمد خاتم النبيين ﷺ.

الآيات الثلاث الأولى درس تربوي للنبي ﷺ:

وإنما جاءت الآيات الثلاث الأولى من هذه الآيات الخمس لإعلام النبي ﷺ بسنة من سنن الأنبياء قبله في جهاد الكافرين، جريًا على سنة القرآن الكريم في طريقة تربية النبي ﷺ وتعليمه بإعلامه بما كان عليه إخوانه الأنبياء قبله ليقتدي بهم فيما يعمه من شرائعهم.

وهذه السنة أن الأنبياء المرسلين بمقتضى حكم النبوة المرسلة مضوا في جهادهم القتالي للكافرين دون أن يكون لهم في حروبهم لإعلاء كلمة الله أسرى إلا بعد أن يثخنوا في الأرض مبالغة في إضعاف شوكة أعداء الله من المشركين بكثرة القتل في رجالهم، وكثرة الجراحات، ليثقلوا كواهلهم، ويوهنوا عزائمهم حتى لا تبقى لهم قوة على الحركة للمعاودة إلى قتال المؤمنين المحاربين بما يملأ قلوبهم من الرعب والهلع والتوجس.

ولما كان نبينا محمد ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين الجامع لفضائلهم المتفرقة فيهم، ولما كانت رسالته ﷺ هي خاتمة الرسالات الإلهية الجامعة لفضائل شرائع أولئك الأنبياء المرسلين مما لم يجر عليه نسخ في أحكامه كان كل ما ثبت لهم من شرف وفضيلة وكل ما ثبت في شرائع رسالاتهم من أحكام وتشريعات ثابتًا له ﷺ في رسالته الخاتمة لرسالاتهم.

وسنة نفي أن يكون للأنبياء المرسلين في حروبهم الجهادية لإعلاء كلمة الله أسرى قبل أن يثخنوا في الأرض -بكثرة القتل في أعدائهم، وكثرة الجراحات فيهم، توهينًا لشوكتهم، وإضعافًا لقوتهم، وإدخالًا للرعب في قلوبهم، مما شرف الله به أنبياءه المرسلين الذين شرع لهم في رسالاتهم جهاد الأعداء ومقاتلتهم على قبول الإيمان بالحق الذي جاءوهم به من عند الله، تساميًا بمكانتهم من الله تعالى عن قصد إرادة عرض الدنيا بجهادهم -هي بمقتضى الأمر بالاقتداء بهدي المرسلين سنة محمد ﷺ خاتم النبيين في رسالته الخاتمة، فلا يكون له ﷺ في حروبه الجهادية- لإخراج الناس من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد، وإخلاص الدين كله، علمًا وعملًا لله تعالى وحده- أسرى حتى يثخن في الأرض بكثرة القتل في أعدائه، وأعداء دعوته، دعوة الحق، المعوقين لسير رسالته، رسالة النور والهدى، تحقيقًا لسنة الله مع الأنبياء لتكون لهم القوة والغلبة والسلطان على الحياة، ونبينا محمد ﷺ خاتمهم، فلا بد أن تكون سبيله سبيلهم في هذا

الفضل والشرف والتسامي عن قصد إرادة عرض الدنيا الفاني الذي لا يليق أن يكون من مقاصد أفضل البرية من الأنبياء والمرسلين.

فالأسلوب الذي أخرج فيه هذا المعنى في صدر الآية أسلوب نفي وتنزيه لساحة الأنبياء أن يقصدوا في جهادهم لإعلاء كلمة الله إنهاء معارك الجهاد بمجرد ظهور بوادر النصر لهم وهزيمة أعدائهم بل كانت سنتهم التي رباهم الله عليها في جهادهم الكافرين أن يكثروا القتل في أعدائهم، ويبالغوا في جراحاتهم حتى يفلوا حدهم، ويوهنوا قوتهم، ويضعفوا شوكتهم بقتل صناديد الكفر وقهر الأعداء بغلبتهم غلبة لا يقدرون معها على التفكير في معاودة قتال جند الله من المؤمنين.

فإذا انحرف أتباع الأنبياء عن هذه السنة، وأسرعوا إلى إنهاء المعركة بمجرد ظهور أمارات النصر ومعالمه وهزيمة الأعداء، وأخذوا في جمع الغنائم واستبقاء الرجال أسرى في أيديهم لم يكن ذلك من سنة الأنبياء المتنزهة عن إرادة عرض الدنيا، بل يكون جاريًا على خلاف سنة الأنبياء، ويكون أتباعهم هم الذي استوجبوا أن يكون للأنبياء أسرى ينسبون إليهم بحكم كونهم قادة المعارك الجهادية، والأنبياء لم يأمروا أتباعهم بذلك، ولا رضوا به.

فصدر الآية يحكي إعلام الله تعالى نبيه محمد ﷺ بسنة الأنبياء، وهو خاتمهم، والنموذج الأعلى لفضائلهم وشريعته

صورة جامعة لشـرائعهم المتعبد بها، فهو ﷺ أبعد ما يكون رغبة في إنهاء المعركة، واستبقاء الرجال أسرى تحت يده قبل الإثخان فـي الأرض، لأن ذلـك منفـي عنه، لا يقع منه، وهـو ﷺ منزه عنه بمقتضى كونه نبيًا من الأنبياء المرسلين.

أسلوب الآية الصريح في توجيه العتاب لمن أراد عرض الدنيا بأخذ الغنائم والأسرى:

ولهـذا بعـد أن أدت الآيـة فـي صدرها هـذا المعنى الشـريف المتسـامي عن إرادة عرض الدنيا وزخارفهـا توجهت بالعتاب إلى مـن كانوا قد قصـدوا عرض الدنيا من أصحـاب النبي ﷺ وأتباعه المؤمنيـن برسـالة في أول قتـال جهادي نصرهـم الله فيه على قلة عددهم وضعف عدتهم القتاليـة، فنعت عليهم في مخاطبة خاصة بهم لم يدخل فيها النبي ﷺ قط، فقالت عادلة عن أسـلوب الغيبة - التي أدت به مقام الإعلام لرسـول الله ﷺ بسـنة الأنبياء قبله في معاركهـم الجهاديـة، بنفي أنهم لم يكن لهم أسـرى في معاركهم وتنزههـم عن قصـد ذلك، فكذلـك هو ﷺ لم يكن من شـأنه أن يكـون له أسـرى قبل كسـر الشـوكة بالإثخان فـي الأرض، وإنما الذين جعلوا له أسـرى من ينسبون إليه وهم أصحابه وأتباعه الذين أرادوا عرض الدنيا الزائل، وأعرضوا عن ثواب الآخرة الدائم - إلى أسـلوب الخطاب الجماعي معاتبة لهم، عاتبة عليهم ما كان فيهم من التسرع لإنهاء المعركة وجمع الغنائم واستبقاء الرجال أسرى

في أيديهم، مما لا ينبغي أن يسند لنبي من الأنبياء، فضلًا عن خاتمهم وجامع فضائلهم فقالت لهم: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ وهذا خطاب لم يدخل فيه النبي ﷺ قط، وإنما هو خاص بالذين أرادوا أن يكون لهم - وهم تحت قيادة النبي ﷺ- أسرى من رجال الأعداء فعجلوا بإنهاء المعركة لجمع الغنائم، وهي عرض زائل من أعراض الدنيا الفانية معرضين عن ثواب الله في الدار الآخرة الباقية وهو ثواب دائم لا يزول ولا يحول، فهم الذين تسببوا في أن يكون لنبي الله ﷺ أسرى، نتيجة لاسترخائهم في القتال، إيثارًا للغنيمة واستبقاء الرجال، وأخذهم أسرى يفادونهم.

فالنبي ﷺ لم يكن قط راغبًا في أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض، لأن ذلك لم يكن من شأنه ولا هو مما تقتضيه معالم نبوته، بل ثبت أنه ﷺ كره ذلك إذ علمه بإعلام سعد بن معاذ له، وإذ رآه وهو ينظر من العريش إلى ما يصنعه أصحابه من جمع الغنائم واستبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

قال ابن إسحاق: ولما وضع القوم أيديهم يأسرون رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: «كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟» فقال سعد بن معاذ: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان أحب إلي من استبقاء الرجال.

وهـذا يحمـل في طياته موافقـة النبي ﷺ علـى أن الإثخان في القتـل كان أحـب إليه ﷺ من اسـتبقاء الرجال وأخذهم أسـرى، والتعجيل بإنهاء المعركة فرحًا بالغنائم والأسرى.

ولم نر قط في رواية أن النبي ﷺ -و هو القائد الأعلى المطاع- أمـر بإنهـاء المعركة وأسـر الرجـال لأن هذا منفي عنـه، معارض لمقتضى نبوته.

ومـن ثم ذهـب كثير مـن المفسـرين -أبو حيان وغيـره- إلى أن الـكلام في صـدر الآية على حـذف مضاف، فقـال: أي ما كان لأصحـاب نبـي، أو لأتباع نبي ومعنـاه أن الذين قصـدوا أن يكون لهم أسرى يأخذون منهم الفداء هم المحاربون الذين تعجلوا إنهاء المعركة، وشـغلوا بجمع الغنائم وأسر الرجال عن الإثخان بكثرة القتلى والجراحات.

وإنما صدرت هذه الآية بذكر النفي عن نبي - أن يكون له أسرى قبـل الإثخـان في الأرض - لأن كل نبي شـرع له الجهـاد، هو قائد أصحابـه وأتباعه فـي جهاد أعداء الله من الكافرين، وهو المشـافه بالخطـاب مـن الله المبلـغ لأمته ما يوحـى إليه من ربـه، فالتأويل بحـذف المضاف وإن كان فيه تنزيه للأنبياء عن مس العتاب لكنه خرج بها عن ظاهرها المؤدي لمقصدها.

فالله تعالى أوحى إلى نبينا محمد ﷺ معلما له أن سـنة الأنبياء قبلـك في جهادهم أعداء الله أنهـم إن هم ظفروا بهم في موقعة من

مواقع القتال، فعليهم أن يكسروا شوكتهم بكثرة القتل لرجالهم وكثرة الجراحات في محاربيهم أثناء معمعة القتال حتى يبلغوا بهم توهين قوتهم توهينًا يسلبهم القدرة على مقاومتهم للوقوف أمام نشر دعوة الحق وتعويقها عن مسيرتها هادية مصلحة.

كان القرطبي موفقًا في تأويل الآيات دون أن يخرج بها عن ظاهرها:

وقد نحا القرطبي نحو توجيه العتاب إلى الصحابة نافيًا له عن النبي ﷺ، منزهًا ساحته عن أن يكون قد أمر باستبقاء الرجال وأخذهم أسرى نحوًا موفقًا فقال: هذه الآية نزلت يوم بدر عتابًا من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ، والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي ﷺ أسرى قبل الإثخان، ولهم -أي للصحابة- هذا الإخبار بقوله: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الأنفال: ٦٧) والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب.

ثم قال القرطبي: هذا قول أكثر المفسرين، وهو الذي لا يصح غيره، وإنما جاء ذكر النبي ﷺ في الآية - أي ضمن عموم النكرة بلفظ (نبي) - حين لم ينه عن استبقاء الرجال وأسرهم حين رآه من العريش، وذكره سعد بن معاذ به، ولكنه عليه السلام شغله بغت الأمر ونزول النصر فترك النهي عن الاستبقاء.

وهـذا كلام صريح في أن أكثر المفسـرين الذيـن لا يصح غير قولهـم ذهبوا إلى أن النبي ﷺ لم يدخـل في الخطاب الموجه إلى عموم المحاربين الذين أرادوا عرض الدنيا فتعجلوا إنهاء المعركة.

بيـد أن كلام القرطبي في بيان حكمة عـدم نهي النبي ﷺ عن اسـتبقاء الرجال وأخذهم أسـرى حين رآه من العريش لا يخلو من نظـر، لأن زعـم أن النبي ﷺ شـغلته المفاجأة ونـزول النصر عن الأمر بعدم إنهاء المعركة واسـتبقاء الرجـال لا يوائم مقام القيادة في الحرب، لا سـيما إذا كان القائد هو الرسـول الله ﷺ وإذا كان الأمـر يتعلق بسـنة من سـنن الأنبياء، لم تقع من واحـد منهم قبله ﷺ فأحرى ألا تقع من أصحابه فتنسب إليه، وليس في أمر النصر بغت، لأن النبي ﷺ باشر أسبابه وتوقعه، وكان على علم تام به.

رأينا في إنهاء النبي ﷺ المعركة قبل الإثخان:

ونحـن نـرى فـي حكمة تـرك النبـي ﷺ النهـي عن اسـتبقاء الرجال أنه ﷺ خشـي إن هو نهى عن اسـتبقاء الرجال بعد الأخذ فيه والشـغل به أن يحدث ذلك شـيئًا من الاضطراب والفوضى في صفوف المسـلمين، فتكون للمنهزمين من الأعداء جولة يرجعون فيها إلى المجاهدين المنتصرين الذين يكونون حينئذ بمعرض أن يصيبهـم شـيء من فتور العزيمة وقد ردوا عـن قصدهم ردًا تضمن الأمـر بقتل الرجـال، وربما ينقلب اتجـاه المعركة، فكان تركهم يأسـرون الرجال بعـد ما أصابوا منهم ما يحقـق الإثخان أرجح في

ميزان التدبير السياسي للمعركة حتى تبلغ نهايتها والمسلمون متماسكون، لأن ذلك لم يخرج عن كونه لونًا من قهر العدو، وبسط سلطان النصر عليه، وإشعاره بذُل الهزيمة وهذا هو المقصود من الإثخان في الأرض.

الاعتذار للصحابة في تعجلهم إنهاء المعركة:

وقد حكى القرطبي عن بعض أهل العلم رأيًا في الاعتذار للصحابة رضي الله عنهم في استعجالهم إنهاء المعركة قبل الإثخان فقال: وقيل: إنما عُوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع، والتصرف في صناديد قريش وأشرافهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملك، ذلك كله عظيم الموقع، فكان حقهم أن ينتظروا الوحي، ولا يستعجلوا، فلما استعجلوا ولم ينتظروا توجه عليهم ما توجه.

تحقيق في معنى (ما كان) وهو الدعامة الكبرى في بيان معنى الآية:

فالآية ليس فيها خطاب خاص معين للنبي ﷺ يشعر من قريب أو بعيد بالعتاب، وإنما هي إعلام من الله تعالى لرسوله ﷺ بسنة من سنن الأنبياء في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وهي أنهم صلوات الله عليهم كانوا لا يتعجلون إنهاء المعارك قبل أن يثخنوا في الأرض بكثرة القتل في أعداء الله وأعداء دينه الحق الذي بعث به أنبياءه، قبل أن يبلغوا بهم إلى توهين شوكتهم بالمبالغة في القتل

والجراحات المعجزة لهم عن التحرك لقتال متجدد يواجهون فيه جند الحق لتعويق مسيرة الدعوة إلى الله.

فالآية نفي وتنزيه لساحة النبوة أن يقصد المتحلي بها أن يكون له أسرى يستحييهم ويبقي عليهم قبل أن يعجز جمهرة محاربيهم عن التفكير في معاودة قتال جند الله المجاهدين في سبيله لإعلاء كلمته.

يقول الرازي في تفسيره: قوله: (ما كان) معناه النفي والتنزيه، أي ما يجب وما ينبغي أن يكون له المعنى المذكور، ونظيره ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ (مريم: ٣٥) وقال أبو عبيد: لم يكن لنبي ذلك، فلا يكون لك.

وقال القرطبي: قال أهل المعاني: (ما كان) في القرآن يأتي على وجهين: يأتي على النفي نحو قوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ أي ما كان في اقتداركم أن تنبتوا شجرها فلا يمكن أن يقع منكم، ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا يقع في الوجود موت نفس منفوسة إلا بإذن الله وتقديره، وعلى هذا الوجه - أي النفي - تتنزل آية ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لم يقع من نبي من الأنبياء أن يكون له أسرى حتى يكثر القتل والجراحات في أعدائه، أعداء الله، وأعداء دينه ورسالاته، وإنما وقع ما وقع لك

فكان لك أسرى لأن أصحابك وأتباعك لم يصبروا على استمرار المعركة حتى يثخنوا في الأرض، ولكنهم تعجَّلوا نهايتها دون أمر منك لأنهم أرادوا عَرضَ الدنيا وجمع الغنائم وكثرة الأسرى ليكثر لهم فداؤهم.

أما الوجه الثاني في أسلوب (ما كان) فهو النهي الضمني كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي ما صحّ منكم ولا استقام لكم أن تؤذوا رسول الله بفعل ما لا يرضي الله تعالى، ويضعكم موضع من لا يوقر رسوله بخلفكم له في تزوج نسائه من بعده، أي فلا تقدِموا عليه وتفعلوه لما فيه من عظيم الجرم عند الله، وكقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي ما ينبغي للنبي في شرف مقامه وعظيم مكانته أن يستغفر لأعداء الله المشركين، وما صحّ ولا استقام للمؤمنين بالله ربًا أن يستغفروا لمن لا يؤمن بوحدانية الله تعالى ومات على شركه، فلا تفعلوه ولا يجوز أن يقع منكم، وقد أنكر أبو حيان هذا الوجه الثاني لتركيب (ما كان) فقال: ولا تتضمن هذه الصيغة نهيًا كما يقوله بعضهم، وقد وفق الرازي في اقتصاره على معنى النفي والتنزيه.

وقد ذهب ابن إسحاق ومن تبعه إلى أن في الآية عتابًا للنبي ﷺ لحملهم تركيب ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ على النهي، فزعموا أن النبي ﷺ منهيٌّ بهذه الآية أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض،

والمبالغـة في إثقال العدو عن الحركة وكثرة قتل صناديده، ولكن قد استبقُوا وأخذوا أسرى، فعوتب على ذلك.

أخرج أبو جعفر الطبري قال: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا سَـلَمة، عن ابن إسحاق قال: عاتبه -أي عاتب الله عز شأنه نبيه محمدًا ﷺ - في الأسـرى وأخـذ الغنائم، ولم يكن أحد قبلـه من الأنبياء يأكل مغنمًا من عدوّ له.

وهذا تأويل فاسـد لا يلائم مقام الآية وأسـلوبها وسياقها، لأنه يضع النبي ﷺ موضع المخالف لسنة الأنبياء قبله في أكل المغانم قبل أن يحلها الله له ولأمته، ويدخله ﷺ في الخطاب بقوله تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾.

وهذا من الطامات التي تسـلك معتقدها في سـلك من لا يرجو لله وقـارًا، وسـلك مـن لا يعرف قـدرَ رسـول الله ﷺ وتجافيه عن الدنيـا وزخارفهـا، وتنـأى به عـن الدخول في سـلك ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، وقـد ردَّ القاضي أبو بكر بـن العربي نحو هذا التأويـل الفاسـد فقال: توهم بعـض الناس أنه كان مـن النبي ﷺ معصية فيه غير معينة، وحاشا لله من هذا القول، إنما كان من النبي ﷺ توقف، وهذا رد مجمل لا يشفي.

وقد ذكر الرازي هذا القول على أنه شـبهة لبعض الطاعنين في

عصمة الأنبياء، فقال: تمسك الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه: الوجه الأول إن قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾صريح في أن هذا المعنى منهي عنه، وممنوع، ثم إن هذا المعنى قد حصل.. فكان الذنب لازمًا. ثم أجاب الرازي على هذه الشبهة الواهية، فقال: إن قوله:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يدل على أن الأسر كان مشروعًا ولكن بشرط الإثخان في الأرض،(والمراد بالإثخان كثرة القتل والجرح قبل إنهاء عمليات القتال) فصارت هذه الآية دالة دلالة بينة على أن ذلك الأسر كان جائزًا بحكم هذه الآية، فكيف يمكن التمسك بهذه الآية في أن ذلك الأسر كان ذنبًا ومعصية، ويتأكد هذا الكلام بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾(محمد: ٤).

وقد كان على الرازي أن يتساءل عن الصراحة في النهي التي زعمها صاحب هذه الشبهة الضعيفة، أين هي الصراحة في النهي التي يدل عليها أسلوب الآية؟ وللنهي صيغ وضعت في لغة العرب لتدل عليه، وليس في صدر الآية شيء من ذلك، ولا شك أن حمل الآية على النفي والتنزيه أرجح عقلًا ونقلًا، أما عقلًا فلأن النبي بمقتضى مقام النبوة والعصمة يستحيل عليه أن يخالف إلى أمر نهاه الله عنه فيفعله مريدًا لعرض الدنيا، وأما نقلًا فلأن النبي ﷺ لم يوجَّه إليه في صدر الآية خطاب خاص، ولإجماع جمهور

المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ ﴾ على حذف مضاف، أي ما كان لأصحاب نبي وأتباعه أن يجعلوا له أسرى إرادة عرض الدنيا منهم، بجمع الغنائم واستبقاء الرجال أسرى ليفادوهم.

قراءة ما كان (للنبي) معرفًا قراءة تفسيرية:

وقد نقل بعض المفسرين أنه قرئ ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ بصيغة المعرفة، وهي قراءة منسوبة لأبي الدرداء وأبي حَيْوة، ومعناه أن هذا الذي حصل من الأسر ما كان ينبغي حصوله من النبي وهو محمد ﷺ، وهذه قراءة تفسيرية، لا قراءة تلاوة وتعبد وإعجاز، أريد بها أن تكون تفسيرًا للفظ (نبي) بصيغة النكرة، وهي التي نزل النص القرآني بها ليتوصل بهذا إلى أن النبي ﷺ هو المقصود خاصة بالإخبار بها ليكون ﷺ هو المعاتب في رأي المقلِّدين لابن إسحاق في قوله ورأيه المتقدم، لا أصحابه ﷺ ممَّن تعجَّل إنهاء المعركة واستبقى الرجال أسرى في أيدي المجاهدين.

وممّن ذهب هذا المذهب، ولم يكتف بتأويل لفظ (نبي) الذي نزل به القرآن بلفظ (النبي) الذي زعم أنه قرئ به بل أغرق في التأويل -أبو بكر بن العربي، فجعل المراد من لفظ (نبي) بالتنكير كما جاء في الآية خصوص نبينا محمد ﷺ، فقال في أحكامه: ومعنى قوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ ﴾ ما كان

لك يا محمد أن يكون لك أسرى حتى تثبت هيبتك في النفوس، ولعل أبو بكر بن العربي اعتمد فيما ذكره على قراءة (ما كان للنبي) وهي قراءة لم يعرف تواترها لتكون قرآنًا.

وهذا تأويل بعيد عن منطوق الآية ومفهومها، لأن الله أبهم الأمر بالنسبة لرسول الله ﷺ، وجعله داخلًا في عموم النكرة ليثبت له من النفي والتنزيه ما يثبت للأنبياء، والآية بهذا المساق تكون مدحًا للأنبياء الذين شرع لهم الله الجهاد في رسالاتهم، وبيانًا لسنّة من سنن الشرف التي تحلّوا بها والتزموها، وفي هذا الإطار المحمود يدخل نبينا محمد ﷺ مع إخوانه الأنبياء في تنزيهه أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض، وهو راضٍ عن ذلك، ويكون معنى الآية حينئذ: أنه ليس من سنن الأنبياء ـ وأنت يا محمد خاتمهم ـ أن يكون لهم أسرى قبل أن يُثْخِنوا في الأرض وتثبت هيبتهم في النفوس، ويدخل الرعب في قلوب أعدائهم، فكذلك أنت يا محمد ليس من سنتك في جهادك أن يكون لك أسرى قبل أن تثخن في الأرض، فإذا أسرع أصحابك إلى إنهاء المعركة بمجرد ظهور بوادر النصر قبل أن يكسروا شوكة أعدائهم كسرًا يضعف قوتهم ويملأ قلوبهم هيبة منكم، وجعلوا لك أسرى يُنسبون إليك باعتبارك القائد الأعظم للمعركة كانوا هم المعاتبين بأنهم أرادوا عَرضَ الدنيا الذي يفنىَ ويزول، وتركوا ثواب الآخرة الذي لا يزول ولا يحول، لأنك أنت المنزّه في مقام نبوتك عن ذلك، كما تنّزه إخوانك الأنبياء من قبلك.

فإخـراج الآيـة من أسـلوبها العـام الذي نزلـت به قرآنًـا متلوًا متعبّدًا بـه متحديًا بإعجازه إلى تخصيصها بمحمد ﷺ عدول عن الأسلوب الذي اختاره الله تعالى ليدل به على معنى مقصود بذاته، وتأويلها تأويلًا لا يدل عليه أسلوبها الأصيل من قريب أو بعيد بأي نوع من أنواع الدلالات التي استعملت لهـا الألفاظ بغير مقتضى لهذا العدول والتأويل.

ولا نـدري كيف سـاغ تفسـير لفظ (نبي) بصيغـة النكرة في إفادتهـا العمـوم الشـمولي بلفـظ (النبـي) بصيغـة المعرفـة في خصوصهـا وإفادتهـا الدلالـة على شـخص معين، ثـم يقتحم هذا السـياج البياني القرآني فينص على أن هـذا المدلول عليه المعين بشـخصه هو محمد ﷺ ليكون هو المخبـر عنه فـي صـدر الآيـة ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فيقـال فـي معنى الآيـة: ما كان لك يـا محمد أن يكون لك أسـرى حتى تثبت هيبتك في النفوس.

والقرآن الحكيم إذ يعبّـر بلفظة معينة بصفة خاصة لأداء معنى من المعاني لا يجوز قط أن تفسر اللفظة القرآنية بصيغتها الخاصّة، وهي من كلمات الله العليم الخبير، بلفظة أخرى بصيغة أخرى، لا سـيما إذا كان بين اللفظتين بصيغتيهمـا تقابل بالتضاد، كما هو الشـأن في لفظة (نبي) منكر، ولفظة (النبي) معرفة، لأن في هذا التفسير إهدارًا لمقاصد القرآن في تعبيراته.

ثم يقال في هذا التفسير الذي نقل الآية من العموم المفيد لمعنى أو معان زائدة على الخصوص إلى معنى معيّن يحصر فيه معنى الآية، ما شأن المعاني الزائدة التي كانت مستفادة من عموم اللفظ الذي نزل به النص القرآني؟

هل بطلت استفادتها من عموم اللفظ؟ أو أن اللفظ العام خصص ليكون المعنى محصورًا في هذا التخصيص؟ ومعروف أن العام إذا خصص، أو أريد به الخصوص كان لتخصيصه موجب يقتضيه لحمل المعنى عليه، وأين هذا الموجب هنا في الآية التي معنا لمقتضى التخصيص لم يكشف أحد من الباحثين الغطاء عن ذلك فيما نعلم.

كل ذلك يجعلنا نقف مع رأي جمهور المفسرين الذي قال عنه الإمام القرطبي: وهو الذي لا يصح غيره، من وجوب بقاء الآية على ظاهرها، تقصد إلى الإخبار بأسلوب النفي والتنزيه الذي يفيده قوله: (ما كان) عن سنة من سنن الأنبياء في جهادهم القتالي لإعلاء كلمة الله تعالى، وتخبر في ضمن ذلك أن محمدًا ﷺ مثلهم في هذه السنة الحميدة، منفي عنه منّزه عن أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض.

وبهذا الفهم المستقيم تبقى الآية في وضعها وأسلوبها القرآني لا يشتم منها رائحة عتاب للنبي ﷺ لأنه ﷺ لم يقع منه قط ما يستوجب العتاب، وإنما الذي وقع كان من أصحابه الذين توجّه

إليهم من العتاب ما توجّه، لأنهم تسببوا في أن النبي ﷺ يكون له على خلاف شأنه ومقامه أسرى قبل أن يثخن في الأرض.

ويزكي هذا ويؤيده تنوّع الأسلوب في الجملتين اللتين كانتا صدرًا للآية، فالجملة الأولى مجرد إخبار من الله تعالى عن سنة من سنن الأنبياء في جهادهم القتالي لأعدائهم، لإعلام رسول الله ﷺ بذلك، وإنه داخل في إطار هذه السنة مع إخوانه الأنبياء عليهم السلام، والجملة الثانية توجيه خطاب لجمهور المجاهدين عتابًا لهم على إرادتهم عرض الدنيا الفاني وإعراضهم عن ثواب الآخرة الباقي، وهذه الجملة لم يدخل فيها النبي ﷺ قط لاستحالة إرادة عرض الدنيا منه.

وفي هذا الأسلوب تنبيه لأصحاب النبي ﷺ يهيجهم إلى ما كان عليه أتباع الأنبياء من قبلهم ليكونوا أمثالهم في أنهم لم يتسببوا في أن يكون لأنبيائهم أسرى قبل الإثخان في الأرض، لأنهم منزهون عن ذلك، فُنفي عنهم فلم يقع منهم، ونبيكم محمد ﷺ أحرى ألاّ يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، لأنه ليس من شأنه، وهو منزه عنه بمقتضى التعبير عن ذلك بقوله: ﴿ مَا كَانَ ﴾ الموجب للنفي والتنزيه، فلتكونوا أنتم كأتباع الأنبياء الذين لم يتسبّبوا في أن يكون لأنبيائهم أسرى قبل الإثخان في الأرض، وعندئذ يتجه العتاب إلى أصحاب النبي ﷺ في قوله: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ وتبقى ساحة النبي ﷺ نقيّة طاهرة

مطهــرة، لا يحوم حول حماها شــيء من العتــاب لعدم قيام موجبه منه ﷺ.

في هذا الإطار التحليلي الذي وضعنا فيه أحداث قصة أسرى غزوة بــدر في موضعها من واقع التاريخ وأحــداث الحياة، يجب أن تفهم معاني الآية الأولى من آيات هذه القصة التي وضعت بنصِّها -القرآني بعيــدة عن الروايات الضعيفــة والآراء الباطلة- رســول الله ﷺ في مــكان الأعز الأحمى، إذ جاءت إخبــارًا إعلاميًا له ﷺ بأنه لم يكن من طبيعته في رسالته، ولا شيمته في نبوته أن يعطي أعداءه، أعداء دينه ورســالته المفســدين في الأرض من أحلاس الشرك الفاجر[١٥] والكفر العتيّ والوثنية الباغية فرصة التنفس، وقد سلّطه الله عليهم بقهره وأمكنه منهم بقوة بطشــه حتى أوثقهم الرعب منه، وغلّلهم الفزع من هيبته قبل أن يوثقهم أصحابه بالحبال والقيود، والسلاسل والأغلال، ليذهب ما ألم بنفسه الكريمة من آثار كراهيته لما يصنع أصحابه في جمع الغنائم، واســتبقاء الرجال وأخذهم أسرى بعد أن مكنهــم الله من هؤلاء الأعداء الفجّار الذيــن لم يكادوا يلقَونهم في ميدان المعركة حتى منحوهم أكتافهم مدبرين، يقتلون صناديدهم كيف شــاءوا كما وصفهم أبو ســفيان بن الحارث بن عبد المطلب في حديثه مع عمه أبي لهب، وقد سأله عن المعركة، فقال له: والله مــا هو إلا أن لقينــا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شــاءوا،

---

(١٥) الحلس ما يجلس عليه ويستعار للملازمة يقولون هو حلس كذا أي لا يفارقه. (المجلة)

ويأسروننا كيف شاءوا، كما جاء في حديث أبي رافع مولى العباس بن عبد المطلب.

وكان رسول الله ﷺ يرى جمهرة جنده المحاربين قد حوّلوا النصر الذي لم يكونوا يتوقعونه بل الذي كانوا يتهيبون الإقدام على تحقيقه، وقوفًا منهم مع مقاييس القلّة والكثرة، وموازين القوة المادية في العدد والعُدّة - إلى غنيمة تجمع، ورجال تستبقى وتؤسر، وفرّار يهربون في فجاج الأرض مفزّعين مرعوبين كأنما كانت تتخطفهم الشواهين والنسور، وتنقض عليهم البزاة والصقور، وتلاحقهم لتلتهمهم الأسد والنمور، ولم يكن من الحكمة في سياسة الموقف أن يُرَدَّ الغانمون والآسرون عن مقاصدهم بعد أن أغمدوا سيوفهم، وشغلوا بتصفية المعركة وجمع الغنائم واستبقاء الرجال، وأخذهم أسرى إرادة عرض الدنيا والإعراض عن الآخرة وما فيها من عظيم الثواب والنعيم المقيم.

وقد جاء العتاب بجلاميده ينقضُّ على رءوس الذي كان موقفهم سببًا في أن يكون للنبي ﷺ أسرى قبل أن يثخن في الأرض، ويبلغ من أعدائه مبلغًا يكسر شوكتهم ويرعبل قوتهم، حتى يعجزهم عن مواجهته في مواقع القتال، فقال تعالى يخاطب الذين أسرعوا في إنهاء المعركة قبل أن تصل بالنصر إلى نهايته العليا بعد أن أخبر رسول الله ﷺ أنه بمقتضى نبوته، لا يكون له كإخوانه الأنبياء الذين شرع لهم الجهاد قبله أسرى يفادونهم: ﴿تُرِيدُونَ

عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ؛ لأنه ﷺ منّزه عن قصد إرادة عرض الدنيا ، فلا يقع منه قط ، ولا ينبغي أن يقع من جنده فيسند له ، ولكنه ﷺ موجّه من الله تعالى لأن يجري في جهاده لإعلاء كلمة الله مع إرادة الله في قصد الآخرة وثوابها ، لتبقى دائمًا يده هي العليا في هزيمة أعدائه كلما أظفره الله بهم في ميادين القتال .

رأي أبي حيان في تفسير الآية:

وقد عرض أبو حيان في تفسيره (البحر) لهذا الموقف الذي لم يرتكز في حقائق القصة إلا على الروايات الواهنة الواهية التي اشتملت على ما لا ينبغي في حق الأنبياء وخاتمهم سيد المرسلين محمد ﷺ ، والتي وجهت العتاب في الآية إلى جمهور مباشري الحرب كما يفيده أسلوب النص القرآني .

ولكن المتشبثين بزبد الروايات ، المستعبدين لما ورد فيها من غثاء القول الذي لم يسند إلى صحابي بسند صحيح دون تمحيص يرد ما لا ينبغي أن يقال ، ويستمسك بما يصح في العقول وأصول الإيمان ـ جعلوا العتاب موجهًا إلى النبي ﷺ ، كما رواه الطبري عن ابن إسحاق وغيره مما لا يمكن أن يثبت في ميزان البحث المدعم بالأدلة والبراهين .

ونحن نسوق كلام أبي حيان لما فيه من الفائدة : قال : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ

لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

نزلت في أسرى بدر، وكان رسول الله ﷺ قد استشار أبا بكر وعمر وعليًا، فأشار أبو بكر بالاستحياء، وعمر بالقتل، وقرأ أبو الدرداء، وأبو حيْوة ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ معرفًا، والمراد به في التنكير والتعريف الرسول ﷺ، ولكن في التنكير إبهام في كون النفي لم يتوجه عليه معينًا وهو هنا على حذف مضاف، أي ما كان لأصحاب نبي، أو لأتباع نبي، فحذف اختصارًا، ولذلك جاء الجمع في قوله: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ولم يجئ التركيب تريد أو يريد عرض الدنيا؛ لأنه ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد عرض الدنيا قط، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب.

ثم قال أبو حيان: وقد طوّل المفسرون في قصة هؤلاء الأسارى، وذلك مذكور في السِّير، وحذفناه نحن؛ لأن في بعضه ما لا يناسب ذكره بالنسبة إلى مناصب الرسل، اهـ.

ثم ختمت الآية بذكر وصفين من نعوت الكمال الإلهي الذي يقع موقعه من مناسبات الكلام، فجاء قوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فوصف العزّة إلماع للغلبة القاهرة والقوة الباطشة، ووصف الحكمة إيذان بما في هذا العتاب لجمهور المحاربين المؤمنين من وضع الأمر في موضعه، وتوجيه العتاب لمستحقيه، وتثبيت للنبي ﷺ

على سجيته من عدم إرادته قط عرض الدنيا لأنه منّزه عنه، وعن أسبابه وموجباته، ومنفي عن ساحته فلا يقع منه، ولا يأمر بأسبابه ودواعيه، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وهو ظاهر جلي في أنه ليس فيه رائحة عتاب له ﷺ، فمن زعمه وقال به فإنما حسابه عند ربه.

تحقيق وبيان لمعنى الآية الثانية:

ثم قال تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ و(لولا) حرف شرطي امتناعي يفيد أن وجود شرطه مانع من وقوع جوابه، والمعنى: لولا وجود كتاب سابق في علم الله الأزلي بأنكم يا أهل بدر لا يعذبكم الله على ما صدر ويصدر منكم من هفوات المخالفات لما كان منكم من مواقف في نصرة الدعوة إلى الله خلّدت ذكركم في تاريخ الحياة، فكنتم بها أفضل أصحاب محمد خاتم النبيين ﷺ، وأفضل أتباع جميع الأنبياء والرسل، لمّسكم من الله فيما أخذتم من الغنائم قبل الإثخان عذابٌ عظيمٌ.

أو المراد بالكتاب السابق ما سُطِّر في علم الغيب من إحلال الغنائم لكم خاصة دون غيركم من سائر أمم الرسل، لمسكم في إسراعكم لها وجمعها قبل أن ينزل لكم الأمر بحلِّها عذاب من الله عظيم؛ لأنكم وليتم وجوهكم شطر الدنيا وعرضها الزائل مما لا يليق بمكانتكم عند الله، ولكنكم أدرككم ضعف البشرية، فحاد

بكـم عن نهج كمالكـم التربوي في ظل الإيمـان، وزين الدنيا في أعينكم فرضيتموها بديلاً عن تسـاميكم لإرادة الآخرة التي أعدّها الله لكم بما فيها من نعيم مقيم.

فأنهيتم معركة الشـرف والعزة وأنتم في أوج نصرها، وخضتم معركـة الغنائـم والأسـر، واسـتبقيتم الرجـال المحاربيـن لكـم لتفادوهم، فكنتم سببًا في أن ينسب إلى نبيكم خاتم النبيين وسيد المرسـلين ما لا ينبغي أن ينسـب إليه مما هو منفي عنه ومنزه أن يقع منه، وهو أن يكون له أسـرى باستبقائكم الرجال قبل الإثخان فـي الأرض، لكن الكتاب الأزلي سـبق مـن الله تعالى فعصمكم أن يمسكم من الله عذاب عظيم.

اعتماد المفسرين في تفسير الآيات على روايات أسباب النزول:

وهنا تتدخل روايات أسـباب النزول لتفسر بها الآية، وأسباب النزول كما قلنا مرارًا ليسـت تفسـيرًا للآيـات التي تنزل عندها، وهي أحـداث ووقائـع خاصّة نزلـت الآيات لتعطيهـا حكمها في ضمن مـا تفيده من أحـكام عامة، فهـي نماذج تطبيقية وليسـت تفسيرًا للآيات، وهذا إذا صحت أسانيدها واتفقت مناسباتها ولم تختلف في معانيها وحقائقها، ولم تتكرر دواعيها.

والذي ورد منها في هذه الآية كاف لتصوير التكرار والاختلاف بالزيـادة والنقـص، والتقديم والتأخير، والإطـلاق والتقييد، مما

يجعل الاعتماد على الروايات مشوبًا بالاضطراب الذي يضعف الاعتماد عليها.

يقول أبو جعفر الطبري: يقول الله تعالى ذكره لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ يقول: لولا قضاء من الله سبق يا أهل بدر في اللوح المحفوظ بأن الله محل لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضَى أنه لا يضل قومًا بعد إذْ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحدًا شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله ﷺ ناصرًا دين الله- لنالكم من الله بأخذ الغنيمة والفداء عذابٌ عظيمٌ.

ثم ذكر أبو جعفر الآثار الواردة عن أهل التأويل مبينا أنّ كل أثر منها يختص بمعنى من المعاني المتعددة المختلفة التي ذكرها، وقد أطال في ذلك مع اختلاف في الروايات بالزيادة والنقص، وذكر بعض المعاني التي لا يتطلبها المقام، وذكر بعض المعاني التي فيها شذوذ عن المقام وبعد عن المقصود.

رأي الطبري في معنى الآية:

ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قد بيناه قبل، وذلك أن قوله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾خبر عام غير مخصوص على معنى، وكل هذه المعاني التي ذكرتها عمن ذكرت مما قد سبق في كتاب الله أنه لا يؤاخذ بشيء منها هذه الأمة، وذلك ما عملوا من عمل بجهالة، وإحلال الغنيمة والمغفرة لأهل بدر، وكل

ذلـك مما كتـب لهـم، وإذا كان ذلك كذلك فلا وجـه لأن يخص مـن ذلك معنى دون معنى وقد عـمّ الله الخبر بكل ذلك بغير دلالة توجب صحة القول بخصوصه.

وهـذا الـذي ذكره أبـو جعفـر رحمه الله جامـع لما تفـرّق في الروايات المتعددة المختلفة، لكنّ إدخاله الروايات التي تجعل ما أخذ من فداء الأسـرى في ضمن الروايات المفسرة للمراد بكتاب الله تعالى السـابق في علمه الأزلي غير مسـلّم؛ لأن أخذ الفداء من الأسـرى لا دخل له في عتاب المؤمنين، بَلْه عتاب سيد المرسلين محمـد ﷺ، وإنمـا كان العتـاب للمؤمنين على تركهـم الإِثخان في العدو، ومسـارعتهم لإِنهاء المعركة واشـتغالهم بجمع الغنائم واستبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

وهذا هـو الذي ذكره الطبري عن الحسـن، والأعمش من قوله وروايتـه عن أبي هريـرة موقوفًـا ومرفوعًا، كما يوقـف عليه عند النظر في تفسـير أبي جعفر رحمه الله، وهو أيضًا عند الطبري من قول الضحّاك وعطاء.

وفي تفسير ابن كثير أن هذا هو اختيار الطبري، ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه- ، قال: قال رسـول الله ﷺ: «أعطيت خمسًـا لم يعطهنّ أحدٌ مـن الأنبياء قبلي» ثم ذكر من هـذه الخصائص الخمس قوله ﷺ: «وأحلّت لي الغنائم، ولم تحلّ لأحدٍ قبلي».

وفــي كل هذه الآثار والروايات انصب الكلام على جمع الغنائم فــي أثنــاء الحــرب قبل الإثخــان في العدو الذي اســتلزم اســتبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

وفداء الأسرى وإن كان يدخل في الغنائم بمعناها العام لكنه لا يدخل في أســباب العتاب الذي توجه علــى جمهور المحاربين من المجاهديــن؛ لأنه كان حلالاً قبل بدر كما وقع في أســيري ســرية عبد الله بن جحش.

وقد طّول المفســرون وأرباب المغازي والسِّــير الكلام في هذا الموضع، وعــدّدوا الروايات المتعارضة وأكثــروا من إيرادها دون تنبيــه على ما فيها من الاختلاف والتعــارض، وأدخل بعضهم فداء الأسرى في الغنائم التي كان الإسراع إليها قبل الإثخان في المعركة بكثرة القتل في العدو وكثرة الجراحات في رجاله هو منشأ العتاب الموجّه إلى جمهور المؤمنين المحاربين في صدر الآية ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾، وقد عرفنا أن بعض المفســرين ذهب إلى أن الــكلام على حــذف مضاف تقديره: مــا كان لأصحاب نبي ولا لأتباع نبي أن يتســببوا فــي أن يكون لنبيهم أســرى قبل الإثخان، وإذاً فلا دخل مطلقًا للنبي ﷺ في توجّه شــيء من العتاب له؛ لأنه منزهّ عن أسبابه، وهي منفيّة، عنه، فلم تقع منه ولا ينبغي أن تقع.

إجمال الوضع في قصة الأسر:

والواقع الذي تدل عليه الآيات أن هناك مقامين منفصلين: المقام الأول هو مقام الاستعجال في إنهاء الحرب بمجرد ظهور بوادر النصر قبل الإثخان في الأرض بكثرة القتل في العدو والمبالغة في جراحاته لكسر شوكته، وتوهين قوته، والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

وهذا ما بينّاه في كلامنا على الآية الأولى، وأنه هو الذي كان منشأ العتاب للذين سلكوا هذا المسلك من جمهور المجاهدين، مّما لم يأمر به رسول الله ﷺ ولم يرضَه وهو القائد الأعظم الذي كان يجب أن تسمع كلمته في الموقف، ويعمل بها ويرجع إليها.

المقام الثاني: مقام فداء الأسرى، وهذا المعنى لم يأت صريحًا في نص الآيات الخمس، وإنما وردت فيه أحاديث وآثار مختلفة، يذكر في بعضها ما لم يذكر في غيرها، وقد اتكأ عليها الباحثون من المفسرين وغيرهم، وجعلوها تفسيرًا للآيات باعتبارها أسبابًا للنزول لما جاء فيها من الأحداث والوقائع التي تتصل بالموضوع، وقد نبّهنا مرارًا إلى أن ما يقال له من الآثار والأحاديث أسباب نزول الآيات لا يصلح أن يكون تفسيرًا لها، لما فيها من اختلاف الحوادث والوقائع والأشخاص والأماكن والأزمان.

وتحقيق القول في هذا المقام أن النبي ﷺ أمر بتخيير أصحابه بين أخذ الفداء من الأسرى وإطلاقهم أحرارًا، ويقتل من المؤمنين

في عام مقبل مثل عدد الأسرى الذين فُودُوا وأطلقوا، وبين أن يقتلوا الأسرى ويسلم المؤمنون كما أخرجه عبد بن حُميد بسنده، وقد عرض النبي ﷺ هذا التخيير على أصحابه فاختاروا أخذ الفداء من الأسرى ليتقووا به على أعدائهم، ويستشهد منهم في عام مقبل أمثال عدد الأسرى الذين فادوهم، وأطلقوهم من الأسر في مقابل الفداء.

ولما عرض رسول الله ﷺ هذا التخيير أخرجه مخرج المشاورة لأصحابه في شأن الأسرى ليكشف عما يدور في أنفسهم، مع ما في ذلك من تطييب خواطرهم.

وقد أخرج حديث التخيير الحاكم ـ وصحّحه ـ وابن مردويه والبيهقي في سننه هنا عن عليّ – رضي الله عنه– ، قال: قال رسول الله ﷺ للأسارى يوم بدر: «إن شئتم فاقتلوهم، وإن شئتم فاديتم، واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدتهم» وأخرجه أيضا عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة عن أبي عبيدة – رضي الله عنه– ، قال: نزل جبريل –عليه السلام– على النبي ﷺ يوم بدر، فقال: إن ربك يخيرك: إن شئت أن تقتل هؤلاء الأسرى، وإن شئت أن تفادي بهم، ويقتل من أصحابك مثلهم، فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقالوا: نفاديهم فنتقوى بهم، ويكرم الله بالشهادة من يشاء.

أشهر الأحاديث في المشاورة وأقواها سندا وبيانا لمصير الأسرى:

وقد جاءت في هذه المشاورة روايات متعددة، من أشهرها وأكثرها تفصيلاً وأصحها سندًا حديثان أحدهما أخرجه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب ورواه عنه ابن عباس برواية أبي زُميل، ولم يذكر فيه شيء عن التخيير، والتخيير ليس حكمًا، وإنما هو طريق للوصول إلى الحكم الذي يستقر عليه الأمر.

أما الحديث الثاني فقد أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنّه ابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه- .

ونحن نورد هذين الحديثين لأنهما مدار الباحثين في موضوع أخذ الفداء من أسرى بدر، وننبه على ما بينهما من اختلاف، ونستخرج ما فيهما من دلالة على أن أخذ الفداء لم يكن موضع عتاب على المؤمنين المجاهدين فضلاً عن رسول الله ﷺ المنّزه بمقتضى أسلوب الآية عن أن يقع منه في هذا المقام ما يستوجب العتاب.

ونص حديث مسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما- من طريق أبي زميل قال: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى» فقال أبو بكر: هم بنو العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار،

فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنّا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم بالفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ شجرة قريبة من نبي الله ﷺ ـ وأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فأحلّ الله الغنيمة لهم.

وأما الحديث الثاني فقد قال السيوطي في (الدر): وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه ـ وابن المنذر وابن أبي حاتم، والطبراني، والطبري، والحاكم ـ وصححه ـ وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود، قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسارَى، وفيهم العباس، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك

وأهلك، استبقهم، لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: كذّبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، قدِّمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: انظر واديًا كثير الحطب فأضرمه عليهم، فقال العباس وهو يسمع: قطعت رحمك، فدخل رسول الله ﷺ ولم يرَد عليهم شيئًا، شيئا، فقال ناس: يأخذ برأي أبي بكر - رضي الله عنه-، وقال ناس: يأخذ برأي عمر، وقال ناس: يأخذ برأي عبد الله بن رواحة.

فخرج رسول الله ﷺ فقال: "إن الله ليليّن قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ومثلك يا عمر كمثل نوح -عليه السلام- إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ومثلك يا عمر كمثل موسى إذ قال:

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أنتم عالة فلا ينفلتن أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضربة عنق، فقال عبد الله بن مسعود إلا سهل بن بيضاء، فإنني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، قال عبد الله: فما رأيتني أخوف أن تقع عليّ الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم، فأنزل

الله عـز وجـل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى آخر الآيتين.

وهاتان الروايتان ذكرهما أبو جعفر الطبري في تاريخه بسنده، ولـم يخرجهمـا بتفصيل فـي تفسـيره، وأخرجهمـا القرطبي في تفسـيره (الجامـع لأحـكام القرآن) وأسـند أولاهما إلى مسـلم، والثانيـة إلى يزيد بن هارون بسـنده، وجـاءت منهما قطع متفرقة عند كثير من المفسرين وأرباب المغازي والسّير.

مواطن الاختلاف بين الروايتين:

والاختـلاف بيـن روايتي حديث المشـاورة في أخـذ الفداء من الأسرى يبدو في:

أولاً: أن روايـة مسـلم، وهـي مـن روايـة ابن عباس عـن عمر بن الخطـاب، اقتصـرت علـى توجيـه الحديـث فـي الاستشـارة على الشـيخين: أبي بكر وعمر – رضي الله عنه- مـا- باعتبارهما أفضل الصحابـة رأيًـا، وأنفذهـم في حل المعضـلات فكـرًا، وأقربهم إلى رسـول الله ﷺ منزلة، فكانا منه السـمع والبصـر، وأعمقهم معرفة بأسـباب الحوادث، وأحكمهم سياسـة في الوصول إلى وضع الأمور في مواضعها، وألزمهم وجودًا في مجالس رسـول الله ﷺ ومحاوراته واستشـاراته، فقلّما غابا عن حادث مهم، فرأيهما معبر أكمل تعبير عـن رأي المجتمع المسـلم فـي جانبيه الرحيم الرءوف، والشـديد القوي الأمين، وقلّما خرجت آراء أفراد المجتمع المسلم وجماعاته عن رأيهما.

ثانيًا : إن رواية مسلم اشتملت على عبارة : (فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت) وهي من قول عمر الاجتهادي ، ولعلّ عمر - رضي الله عنه- أخذ هذا المعنى من معرفته الصادقة بغلبة جانب الرحمة والشفقة على خَلْق الله عامة على طبيعة رسول الله ﷺ ؛ لأن النبي ﷺ لم يقع منه تصرف يشعر بذلك عقب حديث المشورة منهما مباشرة ، بل سمع منهما وسكت ، ثم دخل بيته ومكث زمنًا ذهب فيه الناس مذاهب بما يأخذ به رسول الله ﷺ .

تخيير النبي ﷺ في حكم الأسرى:

ولعله ﷺ جاءه التخيير في هذا الوقت ، فاختار ﷺ ما شاء الله له اختياره ، والتخيير إباحة لمحظور ، أو تسوية بين مباحين ، وهو إنما وقع بين أمرين انتهت إليهما المشاورة ، فاختار منهما ﷺ ما جبله الله عليه مما ترتب عليه خير كثير للإسلام والمسلمين ؛ لأن الإبقاء بعد القدرة على القهر والتنكيل والقتل من أكرم مكارم الأخلاق وتحبيب الإيمان إلى القلوب ، وقد كانت نتيجة ذلك أن حمل هؤلاء الأسرى وذرياتهم لواء الدعوة إلى الله ، يدعون لدينه الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ المرسل رحمة للعالمين ، فهم الذين فتحوا البلاد وأنقذوا العباد ، واهتدى بهم الضلال ، وأقيمت موازين العدالة والإخاء والمساواة ، وقادوا الإنسانية إلى آفاق حضارة مؤمنة ، لا يظلم في ظلها أحد .

ولـم يكن مـا كان من قبيل أن النبي ﷺ هوي رأيًا فاختاره، ولم يهو رأيًا فتركه، وإنما كان من قبيل السياسـة الحكيمة التي تزرع في النفوس المودة والمحبة.

ثالثًا: إن رواية مسـلم ختمت بهذه الجملة: (فأحلّ الله الغنيمة لهم) والغنيمة في العرف العام إنما يراد بها ما يؤخذ من المحاربين في الموقعة، وهي بهـذا الإطلاق الأعم الأغلب لا يدخل فيها فداء الأسرى، وبذلك يخرج فداء الأسرى عن نطاق العتاب.

أما الحديث الثاني برواياته المتعددة عند عدد من المفسـرين وأرباب المغازي والسـير فقد جـاء فيه ضرب النبي ﷺ لصاحبيه اللذين شـاورهما، بعد أن أشـار كل منهما بما رآه، المثل بالأنبياء والمرسـلين، فجعـل أبا بكـر - رضـي الله عنه- في لينـه ورأفته ورحمته وإشـفاقه مثل إبراهيم وعيسـى -عليهما السلام، وجعل عمر في شدته وصرامته مثل نوح وموسى -عليهما السلام.

والمعروف المتعالم أن رسول الله ﷺ كان أرحم الخلق بالخلق، وأشـفق الناس علـى الناس، وهـي طبيعة خلقـه الله عليهما، ولم يخير ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما وأرفقهما وأرحمهما بأمته ومجتمعه المسلم الذي أقامه على المواساة في الحب والمؤاخاة.

والـكلام في هـذه الرواية المتعـددة التخريـج كان مع جمهور الصحابة على مسمع من الأسرى الذين ذكر فيهم العباس عم رسول الله ﷺ، وقد اشـترك في المشـاورة عبد الله بـن رواحة الأنصاري، وأشار برأي تناهى في الشدة، طلب فيه من رسول الله ﷺ أن يعمد

إلى واد كثير الحطب فيضرمه عليهم ناراً، فسمعه العباس فقال له: (قطعت رحمك) وهذه اللفظة اختلف ضبطها في كتب الرواة فضبطها بعضهم (قُطعت) بالبناء للمجهول، فتكون دعاء على ابن رواحة؛ لأنه أشار بهذه البشاعة المفظعة التي تقطع الأرحام وتفسد القرابات، وضبطت في مواضع أخرى (قطعت رحمك) بالبناء للفاعل وتاء المخاطبة، فتكون من باب اللوم والاستنكار.

وقد ذكر الرازي في تفسيره أن النبي ﷺ قال لعمر حين أشار بما أشار به من الشدة: «يا أبا حفص تأمرني بقتل العباس؟» فجعل عمر يقول: ويل لعمر ثكلته أمه، ويؤيد رواية الرازي ما جاء في سياق كتب المغازي: وفي بعض الروايات أن عمر قال في مشورته: وتأمر حمزة بقتل العباس. ويظهر أن هاتين الروايتين كانتا عماد الدائرين في محور إدخال قضية فداء الأسرى في آية ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قصداً إلى أن يسري ما فيها من عتاب لجمهور المجاهدين الذين أنهوا المعركة -دون إذن من النبي ﷺ وانصرفوا إلى جمع الغنائم واستبقاء الرجال قبل الإثخان -على أخذ الفداء من الأسرى إلى ساحة النبي ﷺ.

وهذا بعيد عن منطوق الآية فمفهومها وأسلوبها لا يشعر به ولا يفيده؛ لأن موضع العتاب فيها قوله تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾، ومصبه الإسراع في إنهاء المعركة بغير أمر من النبي ﷺ، بقصد جمع الغنائم واستبقاء الرجال، وهو عَرض الدنيا الذي أرادوه، فعاتبهم الله تعالى عليه، قبل أن تأتيهم قضية فداء الأسرى.

ويدل لهذا حديث سعد بن معاذ - رضي الله عنه- ، وكراهيته لإنهاء المعركة قبل الإثخان في التنكيل بالعدو تنكيلاً يبلغ من العدو غايته في كثرة القتل والجراحات ، وأما أخذ الفداء من الأسرى فلم يكن قط موضع عتاب ؛ لأن رسول الله ﷺ خيّر بين أخذه وإطلاق الأسارى وبين قتلهم ، وهذا هو نص قوله ﷺ في الحديث الثاني : «أنتم عالة ، فلا ينفلتنّ أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق» وفي هذا النص ميل إلى اختيار أخذ الفداء كما يشعر به قوله ﷺ لأصحابه : «أنتم عالة» أي فقراء محتاجون إلى ما يريشكم لتتقوا على أعدائكم .

ومن هنا اختلفت روايات كثيرة في ربط أخذ الفداء من الأسرى بهذه الآية : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ ، أو بما بعدها ، ففي حديث أنس عند أحمد أن أبا بكر قال : نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء ، فنزل قوله :

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ الآية ، وأخرج نحوه ابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه من طريق نافع عن مولاه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما ، وفي آخره : فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبي بكر ففاداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وحينئذ تكون هذه الآية من قبيل التذكير والامتنان عليهم بنعمة إعلامهم حليّة أكل ما أخذوه من الغنائم ، ولهذا جاء التفريع في قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فوصفه بوصفين

عظيمين يجمعان خلوصه من شائبة التبعية، وثقل المسئولية، إلى ميل النفوس إليه واستطعامه ومهنئه وحلاوة مذاقه ويسر التصرف فيه، والانتفاع به، فقال: ﴿ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ ﴾ ثم أمرهم بتقوى الله لتدوم لهم نعمه عليهم، ويزدادوا أعظم منها؛ لأن التقوي في هذا المقام بمثابة الشكر، قيد للنعمة وإنماء لها، ثم زادهم إنعامًا فأطعمهم في عفوه ومغفرته فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي فلا تبتئسوا بما صدر منكم من إنهاء المعركة والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال من قبل الإثخان في الأرض؛ لأن الله عفا عنكم وغفر لكم بإحسانه ورحمته.

فأخذ الفداء من الأسرى لم يدخل قط في إطار العتاب؛ لأن النبي ﷺ وافق عليه بعد مشاورة أصحابه أو اختاره بتخيير جبريل -عليه السلام- كما في حديث الترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وقال عنه ابن حجر: إسناده صحيح.

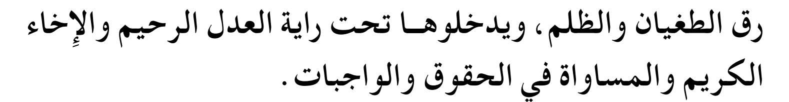
والذي يقطع بعدم دخول الفداء من الأسرى في إطار العتاب للذين أرادوا عرض الدنيا من المحاربين المجاهدين ما وقع في سرية عبدالله بن جحش، وكانت قبل بدر العظمى، وبعد بدر الأولى، ففادى رسول الله ﷺ الحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، وعثمان بن المغيرة، وكانت سرية عبدالله بن حجش قد أسرتهما، وبعثت قريش في فدائهما، فقبل رسول الله ﷺ الفداء، وهذا كالمجمع عليه، فكيف ذهب من عقول المتشبثين بإدخال فداء الأسرى في إطار العتاب؟ والقصة مذكورة بتفاصيلها في كتب التاريخ والمغازي والسير والتفسير.

فمن أدخل فداء أسرى بدر في سببية العتاب فقد اشتبهت عليه معالم الطريق، وضرب في بيداء الروايات المختلفة المتخالفة التي كثيرًا ما كانت مضلة، يعسر الخروج منها.

والذي يؤكد ما قلناه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لأن الله تعالى جعل هذه الآية الكريمة وعدًا كريمًا لمن كانوا تحت يدي رسول الله ﷺ وأيدي أصحابه المجاهدين من الأسرى الذين اشتد عليهم ما أُخذ منهم من الفداء، كما يدل له قول العباس حينما قال له النبي ﷺ: "افد نفسك وابني أخويك نوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب وحليفك عتبة بن عمرو": ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي ما في الدنيا من شيء، فلقد أعطاني الله خيرًا مما أخذ مني، مئة ضعف، وأرجو أن يكون الله غفر لي. وكما يدل له ما جاء في حديث أبي هريرة عند ابن مردويه الطويل: فلما أحل الله لهم فداءهم وأموالهم، قال الأسرى: ما لنا عند الله من خير، قتلنا وأسرنا فأنزل الله يبشرهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وقد أسلم من هؤلاء الأسرى عدد كبير، يشمل جمهورهم الكثير من أشراف قريش الذين كانوا أصدق دعاة للإسلام وأقوى حملة لواء دعوته ونشر رسالته بعد إسلامهم.

أسماء بعض من عرف إسلامه من الأسرى:

وقد ذكر الباحثون أسماء جماعة ممن أسلموا، كان من أفضلهم العباس وابنا أخويه نوفل بن الحارث وعقيل بن أبي طالب، وأبو العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ، وأبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، والسائب ابن عبيد، وعدي بن الخيار، والسائب بن أبي حبيش، وأبو وداعة السهمي، وسهيل بن عمرو، وخالد بن هشام المخزومي، وعبدالله بن السائب، والمطلب بن حنطب، وعبدالله بن أبي بن خلف، وعبدالله بن زمعة أخو سودة بنت زمعة أم المؤمنين - رضي الله عنها، ووهب بن عمير الجمحي، وقيس بن السائب المخزومي، ونسطاس مولى أمية بن خلف، والوليد بن الوليد، وكان النبي ﷺ يدعو له في القنوت لأن قريشًا حبسته بعد أن افتكوه من الأسر، وذهبوا به إلى مكة، فأسلم هناك وعذبوه، ثم أنجاه الله ببركة دعاء النبي ﷺ له، وهاجر إلى المدينة، ومات بها في حياة النبي ﷺ، ومن لم يسلم منهم فقد أعطوا للمجتمع المسلم من ذراريهم كتائب من أبطال الجهاد وجند الفتح الإسلامي الذي نشر جناحيه على آفاق المعمور من الأرض، فأضاء الحياة بنور الرسالة الخالدة الخاتمة لرسالات السماء، فنبتوا في أرجاء الأرض دعاة إلى الله وهداة إلى الحق والخير، يحملون في أيمانهم كتاب الله الحكيم مفتوح الصفحات مشرق الكلمات، يهدي إلى صراط الله العزيز الحميد، ويرفعون بشمائلهم سيوف الحق ماضية في طريقها لتخليص الإنسانية من رق العبودية للمخلوقين، وليخرجوها من ظلمات الوثنيات إلى ساحة الإيمان بالله الواحد المعبود، وليحرروها من



رق الطغيان والظلم، ويدخلوها تحت راية العدل الرحيم والإخاء الكريم والمساواة في الحقوق والواجبات.

استبقاء الأسرى من توفيق الله:

فهل يعقل أن يكون تحتيم قتل هؤلاء الأسرى هو شرع الله دون أن يكون لهم منفذ إلى النجاة للدخول في ساحة الإيمان والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق، وبسط سلطان العدل، ونشر رسالته على العالمين؟ هذا بعيد جدًا عن مقاصد أكرم رسالة ختم الله بها رسالاته السماوية، وأكرم بها الإنسان الذي جعله الله بفضله أكرم مخلوق، وسخّر له ما في السماوات وما في الأرض، ورزقه العقل ليكشف أسرار الكون وكنوز الطبيعة، لتكون سبيله إلى معرفة جلال الله وعظمته ومحكم تدبيره حتى يفرده بالعبادة في شتى صورها وأشكالها المشروعة بوحيه إلى أنبيائه ورسله.

فوضع الأسرى ليس كوضع المعركة وهي تدور رحاها تطحن رءوس الكفر والفجور الذين نابذوا الحق منابذة مضطغنة حاقدة، أعمت أبصارهم وبصائرهم عن النور الذي جاءهم به رسول من أنفسهم ليرفع خسيستهم، ويجعلهم سادة الدنيا، فأبوا إلا أن يحاولوا إطفاء نوره حسدًا من عند أنفسهم، فكان لابد لهؤلاء الفجرة من كسر شوكتهم وتوهين قوتهم وتقتيلهم تقتيلاً يفقدهم الحياة ويفقد من بقي منهم الحركة لمواجهة أجناد الله المجاهدين، وهذا هو المراد بالإثخان في الآية، ليبسط عليهم سلطان المجتمع المسلم ليحكم فيهم بحكم الله تعالى.

فـإذا أخذ الأسـير فنظر في أمـره بما تقتضيه مصلحة الإسـلام ومجتمعه، فإن رؤي فيهم اسـتعداد لقبول الحـق والخير والهدى فتـح لهم أبـواب النجـاة، وفاداهم بما يقـوي المسـلمين ماديًا، وإن رؤي فيهـم اسـتمرار على الفجور والكفر اسـتنطقت للحكم فيهم السـيوف بصليلها فـي أعناقهم حتى تذيقهـم مرارة الموت مدحورين.

النبي يحب الرحمة والإحسان:

ويـدل لهـذا قول النبي ﷺ فـي حديث أنس عنـد أحمد، وهو يستشـير أصحابـه: «إن الله أمكنكـم منهـم وإنمـا هـم إخوانكم بالأمـس» قـال الزرقاني: فيـه ترقيقهم عليهم واسـتعطافهم؛ لأن العفو بعد المقدرة من شيم الكرام.

وقد كانت مشـورة عمر مغضبة للنبي ﷺ، وكانت مشورة أبي بكر بالعفو مذهبة لما اعترى النبي ﷺ من الغم، قال القسـطلاني فـي المواهب بعد أن ذكر مشـورة أبـي بكر بالعفـو عنهم وقبول الفـداء منهم: فذهب من وجه رسـول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفـا عنهـم، وقبل الفداء منهـم، وقال لأصحابـه: «أنتم عالة فلا ينفلتـن أحد منهم إلا بفـداء» ومن كل الروايـات لأنه لا يحل قتل الأسير شرعًا وعرفًا عامًا عند العرب وغيرهم.

وإذا كان وضـع الأسـرى ليـس كوضـع المعركـة وهـي دائرة والنصـر ترفـرف أعلامه علـى رءوس جنـد الله المجاهدين، وكان وضـع المعركـة مقتضيًـا للإثخان بكثـرة القتـل والجراحات في

الأعداء، وكان وضع الأسرى مقتضيًا للنظر والمشاورة لاختيار ما يحقق مصلحة المجتمع المسلم. كان في موقف المجاهدين في المعركة بسرعتهم إلى إنهائها والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال ما يقتضي العتاب للذين يريدون عرض الدنيا ويعرضون عن ثواب الآخرة، فكانوا كالذي اشترى فانيًا مليئا بالغصص والأكدار بدائم لا يزول ولا يحول، لا تلحقه غصص ولا مكدرات، فعاتبهم الله على ذلك.

ثم تفضل عليهم بألطافه وإحساناته فرفع عنهم مرارة العتاب بإخبارهم أن كتابه الأزلي الذي سبق بقضائه لهم أن لا يعذبهم على ما كان منهم، وأن ما غنموه كان في ذلك الكتاب السابق حلالاً لهم، لا تبعة عليهم في أكله والانتفاع به، وهو طيب تشتهيه النفوس الكريمة وترغب فيه.

وكان درس العتاب درس تربية لهم، لا درس عقوبة، ولذلك ختمت آية العتاب بوصفي العزة والحكمة فجاءت فاصلتها ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ليبقي للعتاب أثره الدائم في التربية السلوكية، وختمت آية التفضل بالعفو بوصفي المغفرة والرحمة ليثلج صدورهم بإنعامه عليهم بنعمة العفو، وعدم مس العذاب لهم لأنهم كانوا الدعامات الأولى التي قام عليها بناء الدعوة بالتضحية بالنفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه وتبليغ رسالته.

وقد أبانت الروايات أن رسول الله ﷺ كان كارهًا لموقف الذين تعجلوا إنهاء المعركة وجمع الغنائم واستبقاء الرجال قبل الإثخان في الأرض، وقد مكنهم الله من عدوهم.

ولعلـه ﷺ رأى باجتهاده أن ما تم من النصر محقق للإثخان في الأرض بما سـيكون له مـن أثر بالغ في إشـاعة الهزيمة بين من لم يشـهد المعركة من قريش ومن يناصرها مـن القبائل حولها، وقد تحقق ذلك وأصاب قريشًا من الغم والحزن والذلِ ما نكس رأسها، وأحرق أحشاءها، وشوى أكبادها، وأسكتها غيظًا، ومنعها النوح على قتلاها من الأشراف والصناديد، فكان ذلك من أشد ما أصيبت به من البلاء.

قـال ابـن كثير في تاريخـه: وكان هذا من تمام مـا عذب به الله أحياءهـم فـي ذلك الوقت، وهـو تركهم النوح علـى قتلاهم، فإن البكاء على الميت مما يبل فؤاد الحزين.

وقال ابن إسحاق: وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة مـن ولـده: زمعة، وعقيـل، والحارث، وكان يحـب أن يبكي على بنيـه، فبينما هو كذلك إذ سـمع نائحة من الليل، فقال لغلام له – وكان قـد ذهب بصـره – هل أحل النحب؟ هـل بكت قريش على قتلاهـا؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة يعني ولده زمعة – فإن جوفي قد احترق.

أما وضع الأسرى فكان مختلفًا عن وضع المعركة؛ لأن الأسرى أصبحوا تحت أيدي المسـلمين مملوكين لهـم، مرعوبين منهم، مفزعيـن مـن خوف ما يحل بهـم، يكاد يقتلهم ترقـب المجهول الذي ينتظرهم.

وقد أبدى كثير منهم استعدادهم لاعتناق الإسلام ومناصحتهم لرسـول الله ﷺ، وأظهـروا مـن الضراعة والمذلة مـا بلغ بهم كل

مبلغ، وإبقاؤهم تحت أيدي المسلمين دون تصرف في شأنهم عبء ثقيل على وضع المسلمين الاقتصادي؛ لأنهم كانوا لايزالون في ضيق من العيش وقلة في المال، وكان النبي ﷺ قد أوصاهم بالأسرى خيرًا، فكانوا يحرمون أنفسهم ويكرمون الأسرى كما تدل على ذلك قصة أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير.

فكان من السياسة الحكيمة أن يفتح باب التصرف في شأنهم، فجمع رسول الله ﷺ أصحابه وشاورهم في أمر الأسرى، وكان الله تعالى قد أباح قبل ذلك مفاداة الأسارى كما سبق أن ذكرناه في الإشارة إلى ما وقع في سرية عبد الله بن جحش، وكذلك أباح الله له القتل في حالات خاصة ، فقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، كما أباح له المنّ بغير فداء، فمنّ على أبي العاص بن الربيع، ومنّ على أبي عزة، عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب، وكان محتاجًا ذا بنات، فقال لرسول الله ﷺ يستعطفه: يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فمنّ عليّ، فمنّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدًا، فقال أبو عزة أبياتًا من الشعر، يمدح فيها النبي ﷺ، ولكنه نقض العهد، وشهد مع المشركين أحدًا، فأخذ أسيرًا، فسأل النبي ﷺ أن يمنّ عليه مرة أخرى، فأبى رسول الله ﷺ، وقال له: "لا أدعك تمسح عارضيك وتقول: خدعت محمدًا مرتين" ثم أمر به فضربت عنقه، وتقول بعض الروايات أن أبا عزة هذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» ويقول أهل الحذق في الأدب: هذا من الأمثال التي لم تسمع إلا منه ﷺ.

وكانت مشاورة الصحابة في أمر الأسرى انتهت إلى رأيين،

رأي أبـي بكـر ومن تابعه بالعفـو عنهم وأخذ الفـداء منهم، ورأي عمر ومن وافقه بقتلهم، وصوب رسـول الله ﷺ الرأيين بما ذكره من ضرب المثل للشـيخين بالأنبياء، ولكنه ﷺ اختار بتوفيق الله وتسـديده من الصواب أرفقه وأرحمه وأصلحه لحال المسـلمين، فاختـار المفـاداة بالمـال أو تعليم عشـرة من غلمان المسـلمين القراءة والكتابة عن كل أسير لا يفدي بنفسه بالمال أو القتل لمن لم يقدم في فدائه مالاً، أو تعليمًا للقراءة والكتابة.

وبقـي له ﷺ حق المنّ على مـن يرى أن في المن عليه مصلحة للمسـلمين، وهـذا الوضـع هو الـذي يـدل عليه فحـوى الآيات ومنطوق الروايات التي قيل إنها أسباب نزول الآيات، وهو موضع النبي ﷺ في الذروة من الحكمة في سياسة مجتمعه المسلم، فلم يلحقه ﷺ قط شـيء من العتاب في قضية أسرى بدر، ولا في سير المعركة التي حقق الله بها نصرًا لم تشهد الحياة مثله.

ثـم ختـم الله تعالـى آيات قصـة الأسـرى بتهديد الذيـن كانوا في أيدي المسـلمين، ووعدهـم الله أن يؤتيهم خيـرًا مما أُخذ من الفـداء إذا ظهر حسـن نياتهـم والوفاء بعهودهـم بمناصحة النبي ﷺ وأصحابـه فـإن الله سـيعطيكم فـي الدنيا والآخرة خيـرًا مما أخـذ منكـم، ويزيدكم من فضلـه فيغفر لكم ما سـلف من الكفر والمحـادة له ولرسـوله ﷺ؛ لأنـه غفور لمن صـدق وعده، رحيم لمن وفى بعهده، فقـال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ والمعنـى أن الله تعالـى يقول لنبيه محمد ﷺ: إن هؤلاء الأسـرى الذين تحت يدك وأيدي

أصحابـك الذيـن زعموا بمعسـول القول أنهم يضمرون الإسـلام وأنهـم على عزيمة مناصحتك ومناصحة أصحابك - فلا يظاهرون عليكم عـدوًا لكم، ولا يقفـون منكم موقف عـداوة، وأنهم على اسـتعداد للدعوة إلى ما تدعون إليـه من الهدى والخير - إن كانوا يريـدون بهـذا القول خيانتـك والمكر بك وخداعـك والغدر بما وعـدوك من المناصحـة، والخيس بما عاهدوك فـلا تأس[١٦]، ولا تبتئـس بما يصـدر عنهم من خيانـة؛ لأن ذلك ليس شـيئًا محدثا أحدثـوه لك، ولكنه شنشـنتهم التي مرنوا عليها وسـجيتهم التي طبعـوا بها؛ لأن سـوابقهم في سـجلات الخيانة والغدر مسـطورة تنـادي عليهم بأنهم قـوم لا عهد لهم، ليس معـك ومع أصحابك فحسب، ولكنهم لفجور خيانتهم، وعتو كفرهم سبقوا إلى خيانة الله تعالى الذي خلقهـم ورباهم على موائد فضله، فكفروا به وهم المتقلبـون في نعمائه وعطائه، السـابحون في بحـار آياته ودلائل وجوده وبراهين وحدته، الضارعون تحت وطأة قهره، المقهورون بسـلطان عزته وجبروته، وهو لهم بالمرصاد، لا يفلتون من قبضة انتقامه وبطشه، وها هو ذا -جل شأنه- أخذهم بخيانتهم فسلطكم عليهـم وأمكنكم منهم، فنصركم عليهم وهزمهم هزيمة منكرة، فقتلتـم صناديدهم وأسـرتم أشـرافهم، وأذللتم تعززهـم بدنياهم وزخارفهـا، وكلما عادوا إلى الخيانة عدنا إليهم بالقهر والانتقام، والله تعالى عليم بما يضمرون في مداخل أنفسـهم وما يسرون في قلوبهم مـن إخلاص أو خيانة، حكيم فيما يجازيهم من شـاكلات خياناتهـم، فـلا يشـغلنكم تقلبهـم بيـن الخيـر والشـر والهدى

(١٦) خاس بالعهد نكث. (المجلة)

والضلال، فإن الله تعالى حافظكم بعنايته ومتوليكم برعايته، فهو حسبكم يكفيكم شرور خيانتهم ومكرهم، وهو خير الماكرين الذي لا يفوت تدبيره كيد الكائدين.

ومن غريب ما رأينا في تفسير هذه الآيات ما قاله أبو حيان في (بحره) وهو كلام يند عن أسلوب الآيات، ويبتعد بها عن مراميها ومقاصدها، ونخشى أن يكون هذا من باب التأويل المحرف للكلم عن مواضعه، وعهدنا بأبي حيان - غفر الله لنا وله - أنه ليس من أرباب الوثبات في التأويل.

قال: والذي أقوله: إنهم كانوا مأمورين أولاً بقتل الكفار في غير ما آية كقوله: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ فلما كانت وقعة بدر، وأسروا جماعة من المشركين اختلفوا في أخذ الفداء منهم وفي قتلهم، فعوتب من رأى الفداء، إذ كان قد تقدم الأمر بالقتل، حيث لم يستصحبوا امتثال الأمر، ومالوا إلى الفداء، وحرصوا على تحصيل المال، ألا ترى إلى قول المقداد حين أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبي معيط قال: أسيري يا رسول الله، وقول مصعب بن عمير لمن أسر أخاه: شد يدك عليه فإن له أمًا موسرة، ثم بعد هذه المعاتبة أمر الرسول بقتل بعضٍ، والمنّ بالإطلاق في بعض، والفداء في بعض، فكان ذلك نسخًا لتحتم القتل.

ثم قال تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ في تأييدكم ونصركم وقهركم أعداءكم حتى استوليتم عليهم قتلاً وأسرًا على قلة عددكم - لمسكم فيما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذاب

عظيم منهم، لكونهم كانوا أكثر منكم عددًا وعُددًا، ولكنه تعالى سهل الأمر عليكم ولم يمسكم منهم عذاب لا بقتل ولا أسر، وذلك بالحكم السابق في قضائه أنه يسلطكم عليهم ولا يسلطهم عليكم.

فليس المعنى لمسكم من الله، وإنما المعنى لمسكم من أعدائكم كما قال: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ وقال: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ أي مما غنمتم، ومنه ما حصل بالفداء الذي أقره رسول الله ﷺ وقال: "لا ينفلتن منهم رجل إلا بفدية" وليس هذا الأمر منشأ لإباحة الغنائم إذ قد سبق تحليلها قبل يوم بدر، ولكنه أمر يفيد التوكيد واندراج مال الفداء في عموم ما غنمتم، إذ كان قد وقع العتاب في الميل للفداء ثم أقره رسول الله ﷺ.

هذا كلام ليست له أزَمَة ولا خطم[١٧]، وإنما هو شيء أشبه بهذه السابحات التي تتراءى في أشعة الشمس وأضوائها إذا نفذت من كوة إلى داخل بيت مظلم تراها تلف وتدور هنا وهناك دون أن تستقر، حتى إذا عم البيت نور أضاء أكنافه اختفت دون أثر يدل على وجودها.

---

(١٧) الزمام والخُطام حبل يقاد بهما البعير يدخل جزء منه في أنف البعير. والمعنى أنه كلام ليس له وجهه. (المجلة)

التنبيه إلى ما في كلام أبي حيان من أغاليط:

ولسنا نجد من فسحة الوقت ما يسمح لنا بوقفة مع هذا الكلام لنقده نقدًا تفصيليًا يرده إلى مكانه من جعبة أبي حيان، ولكنا نرى أن ننبه إلى بعض ما ظهر لنا فيه بقدر ما يسمح به الوقت؛ ليكون في ذلك باعث لمن يقرؤه أن يتعمق في بحثه لعله يجد فيه ما يغري بالحرص عليه، أو يدفع إلى ما عسى أن يكون فيه مما يوجب تنحيته عن الولوج إلى حقائق تفسير القرآن الحكيم.

فأبو حيان كشف في صراحة أن هذا الكلام لم يؤثره عن أحد من سلف الأمة أو خلفها، ولكنه رأي مولد له من بنات أفكاره؛ لأنه بدأه بقوله: والذي أقوله، فهو لم يسنده إلى كتاب أو سنة، أو قول صحابي أو تابعي.

ونلاحظ على أبي حيان في هذا الكلام:

أولاً- أن أبا حيان زعم أن الصحابة وسائر المسلمين من بعدهم كانوا من قبل وقعة بدر مأمورين بقتل الكفار في غير ما آية، واستشهد على زعمه بقوله تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾.

وهاتان الجملتان جاءتا في آيات القرآن المتلوّ تعبدًا وإعجازًا بالواو، وهما من سورة النساء، أولاهما برقم (٨٩) والثانية في آية رقم (٩١)، وقد ساقهما أبو حيان في كلامه بالفاء، فقال: في قوله: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾، وقد أتت الجملة الثانية بالفاء في سورة التوبة، لكن تلاوتها هكذا ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾

آية (٥) وهي في صورتها المتلوّة مغايرة لما أورده أبو حيان مغايرة جوهريــة ، وبعيد جدًا أن يقصدها أبــو حيان ، وأتت الجملة الثانية كما أوردها أبو حيان بالواو في سورة البقرة آية (١٩١) .

والاستشــهاد بالآيات يوجب ضبطها بنص التلاوة ، لا سيما إذا كان المستشــهد ممن نصب نفسه لتفســير القرآن الكريم ، وكان فيه صدرًا متقدمًا .

ثانيًــا- أن أبــا حيان زعم أن الأمــر بقتل الكفــار كان قبل وقعة بــدر كما هو بين في قوله : إذ كان قد تقــدم الأمر بالقتل ، والآيتان اللتــان استشــهد بهما أبو حيان على تقدم الأمــر بالقتل على وقعة بدر هما اللتان في سورة النساء ، وسورة النساء متأخرة النزول عن وقعة بدر ؛ لأنها نزلت بعد ســورة الممتحنة التي نزلت بعد ســورة الأحزاب النازلة بعد آل عمران التي نزلت بعد الأنفال ، وهي سورة بــدر ، ففيها ذكــرت قصتها كاملــة بمقدماتها ونتائجها ، وســورة آل عمــران بعد غزوة أحد التي كانت في شــهر شــوال من الســنة الثالثة للهجرة ، وبدر كانت قبلها بنحو سنة ؛ لأنها بدأت في اليوم الســابع عشر من رمضان الســنة الثانية ، وفرغ منها رسول الله ﷺ عقب رمضان .

فليــس لأبي حيان مستمســك في الاستشــهاد بجملتي ســورة النســاء ، مع التجــاوز عن غلطه فــي إيرادهما بالفــاء ، وهما تلاوة بالــواو ، أمــا آية البقرة وهــي الآية الثانية في استشــهاد أبي حيان ، وقــد أصاب فــي إيرادها بالواو كما هي في التلاوة ، وســورة البقرة أول ســورة نزلــت بالمدينة بعد الهجرة ، ولنســلم جدلاً أنها كلها نزلــت بمــا فيها آيــة الاستشــهاد قبل وقعــة بدر ليصبــح أن الأمر

بالقتل قد تقدم لهم قبل وقعة بدر، لكن الجملة التي استشهد بها أبو حيان جاءت في سياق خاص لا عموم فيه حتى يشمل الأمر بتوجيه الخطاب إلى المسلمين بقتل الكفار على الإطلاق، إذ هي قد جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ ﴾ فالضمير المنصوب في قوله ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ ﴾ إلى ماذا يرجع؟ ونظن أنه لا مناص من اعتراف أبي حيان - وخصيصته تتجلى في الجانب الإعرابي من آيات القرآن - إن مرجع هذا الضمير هم أولئك الذين يقاتلون المسلمين ظلمًا وعدوانًا.

والمعروف تاريخيًا أنه لم يكن قد وقع قتال في مواجهة قوة بقوة، وجيش أمام جيش قبل غزوة بدر، وإنما الذي سبق بدرًا كان جملة من السرايا والبعوث التي يرسلها رسول الله ﷺ إلى مواطن القوم أو للتعرض لهم وهم مارون بتجاراتهم، وقد يخرج في بعضها رسول الله ﷺ بنفسه الشريفة.

فوقعة بدر كانت هي أول وقعة مواجهة بين كتائب المسلمين وحشود الكافرين، وكان المسلمون قبل بدر لا يزالون في قلة وضعف بالنسبة لأعداد وعدد المشركين، وقد قال الله لهم: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ ﴾ أي ضعفاء في قلة عدد وضعف عدة، فكيف ومتى توجه إلى المسلمين الأمر بقتل الكافرين قبل غزوة بدر، فقول أبي حيان: (إذ كان الأمر بالقتل قد تقدم) غير مُسلَّم؛ لأنه بعيد عن مراحل تدرج الجهاد القتالي الذي انتصر فيه المسلمون في أول وقعة مواجهة هي غزوة بدر.

ثالثًا– أن أبا حيان تمسك بحادثة فردية في الدلالة على حرص جمهور الصحابة على المال وتحصيله، وذلك قوله: ألا ترى إلى قول المقداد لرسول الله ﷺ حينما أمر بقتل عقبة بن أبي معيط: أسيري يا رسول الله، وقول مصعب بن عمير للذي أسر أخاه: شد يدك عليه فإن له أُمّاً موسرة، أيكفي هذا في التدليل على حرص الصحابة على المال وتحصيله الذي استوجب عليهم العتاب لتطلعهم إلى أخذ الفداء، ولو سلم ذلك – جدلاً – في قول المقداد؛ فأين هي الدلالة في قول مصعب، وهو لم يكن الآسر لأخيه الذي سيفيد من أسره؟

وكان أمام أبي حيان الموقف الجمهوري الذي وقفه جمهور الصحابة في تعجلهم إنهاء المعركة قبل الإثخان في العدو، واشتغالهم بجمع الغنائم واستبقاء الرجال، وقد كانوا متمكنين من قتلهم وإكثار الجراحات فيهم، وهو الذي عوتبوا عليه بقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

رابعًا– إن أبا حيان جعل تصرف رسول الله ﷺ في الأسرى بين الفداء والمن والقتل نسخًا، وهذا إذا سلم يكون من قبيل نسخ القرآن بالسنة، وهو محل اختلاف الأصوليين، والقائلون به يشترطون في الناسخ من السنة أن يكون متواتر الثبوت، ولم يجوزوه شرعًا بخبر الواحد، وإن قال به أبو المعالي الجويني إمام الحرمين، وأنكر الإمام الشافعي نسخ القرآن بالسنة المتواترة، وقال بقوله بعض أئمة المالكية، وأبو حيان لم يحقق هذا النسخ في هذه المسألة من جهة الناسخ والمنسوخ، وشرط المنسوخ أن يكون حكمًا شرعيًا ثابتًا قبل النسخ، والأمر بقتل الكفار قبل بدر

لم يثبت ثبوتًا قاطعًا وقد عرفت سبيل الآيات التي استدل بها أبو حيان على تقدم الأمر بالقتل قبل بدر، وشرط الناسخ أن يكون قرآنًا عند الشافعي إذا كان المنسوخ حكمًا قرآنيًا، وعند غير الشافعي أن يكون متواترًا قرآنًا أو سنة.

خامسًا - شذوذ ما ذهب إليه أبو حيان من أن المراد من قوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لمسكم من أعدائكم، على وجه القهر والغلبة، لا من الله تعالى على وجه العقوبة، على ما صدر منكم من فعل أردتم به عرض الدنيا، وعلل ذلك أبو حيان بكثرة عدد الأعداء وعُددهم، وأن هذا كان في الكتاب السابق الأزلي الذي سجل فيه أن الله تعالى يسلطكم عليهم، ولا يسلطهم عليكم.

ويؤكد ذلك أبو حيان، فيقول: ليس المعنى لمسكم من الله، وإنما المعنى لمسكم من أعدائكم، وهذا ما لم يقل به أحد من أهل العلم بالقرآن وتأويله - فيما نعلم - وكلام أبي حيان مؤذن بأنه قوله وهو من مبتكراته وأنه لم يتبع فيه أحدًا من أئمة العلم.

وقد استشهد أبو حيان على ما ذهب إليه من هذا المعنى الشاذ بآيتين لا يدلان على ما قال من قريب أو بعيد؛ لأنهما من الآيات العامة التي جاءت لتذكير المؤمنين بنعم الله عليهم وتحريضهم على الصبر على ما يصيبهم في حروبهم مع أعدائهم، فإنهم إذ أصيبوا في مواجهة أعدائهم للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله فإن أعداءهم أصيبوا كذلك في محاربتهم لهم لإطفاء نور الله، وللمؤمنين ميزة فضل الله بما يرجونه بإيمانهم من نعم الله وإحساناته مما ليس للكافرين مثله.

ونكتفي بهذا القدر، ونكف عنان القلم عن الاستمرار في ملاحظاتنا على أبي حيان رحمه الله؛ لأنه في مكانته العلمية لا تنتقص وقفتنا في نقد كلامه من قدره، فهو في عداد أساطين الفكر في تاريخ الإسلام الذين أثروا التراث اللغوي والفكري في هذا التاريخ ممن يعز وجود أمثالهم.

لقد أقمنا دعائم بحث قصة أسرى بدر، وتصرف النبي ﷺ في أمرهم، وفي الأحداث التي احتفت بأسرهم، وتوجيه العتاب لجمهور المؤمنين المجاهدين على سلوكهم فيما استوجب هذا العتاب - على الآيات القرآنية التي وردت في شأن هذه القصة، ووجهنا جهدنا إلى تفسيرها واستخراج ما فيها من الحقائق والمعاني، مسترشدين بما قاله أئمة العلم من سلف الأمة وخلفها..

وأبنَّا بالبراهين الواضحة أن منشأ العتاب الذي تفيده الآيات بسياقها وأسلوبها كان في تعجل جمهرة المؤمنين المجاهدين إنهاء المعركة بمجرد أن لاحت لهم في أفق المعركة لوائح النصر قبل أن يثخنوا في الأرض بإشباع سيوفهم من هامات أعدائهم وإكثار الجراحات فيهم؛ مما أدى إلى استبقاء الرجال وأخذهم أسرى في أيديهم.

إجمال ما فصلناه من البحث:

وقد وصلنا البحث بمنهاجنا الذي اتخذناه طريقا إلى إبانة الحقيقة وهي أن التصرف في الأسرى وأخذ الفداء منهم لم يكن له مدخل قط في موجبات العتاب، وأن هذا التصرف كان أمرًا مشروعًا قبل غزوة بدر، وأن النبي ﷺ خير فيه بين الحسنيين،

فاختار أرفقهما وأرحمهما وأصلحهما لمستقبل مسير الدعوة ونشر الرسالة[١٨].

وحياة المجتمع المسلم في جهاده لإعلاء كلمة الله لا يستقيم في شرعة النضال بين الحق والباطل أن تخمد له جذوة، وقد رأى النبي ﷺ بسياسته الحكيمة - لمجتمعه المسلم، وتدبيره المحكم في تربية هذا المجتمع الذي نيطت به قيادة الإنسانية لتنشئ حضارة مؤمنة على أنقاض الحضارات الكافرة الملحدة - أن يجعل من هذا التخيير درسًا تربويًا لأمته في مستقبل حياتها، ليعلمهم كيف يعالجون المعضلات من الحوادث التي لابد أن تقابلهم في حياتهم، وكيف يحلون المشكلات التي تواجههم في مسيرتهم بدعوة الهدى والنور، ورسالة الحق والخير، سواء أكان ذلك في مواقف الجهاد ومعامع القتال أم كان في مواقف السياسة وفتح مغاليق الأمور الفكرية والاجتماعية.

فدعا ﷺ من شهده من أصحابه وجنوده في بدر، ولبى الدعوة من أتيحت له فرصة التلبية من الخاصة والعامة، وهذا هو الأشهر الذي يؤخذ من نصوص الروايات وفحواها، وفي بعض الروايات أنه ﷺ دعا أبا بكر وعمر وعليًا، وفي بعضها الاقتصار على أبي بكر وعمر، وهذا الخلاف له قيمته في فهم الشورى، ومن هم أهلها وهل هم عامة الناس وخاصتهم؟ أو هم ذوو الرأي الناضج والفكر السوي من الخاصة، بيد أن الذي كان في هذه الشورى أن

---

(١٨) والآيات ٦٧ - ٧١ من سورة الأنفال تلخص ذلك كله؛ فالآية ٦٧ عتاب للمسلمين في استعجال الأسر قبل الإثخان رغبة في مال الفداء، والآيتان ٦٨ - ٦٩ تحل لهم الفداء، والآيتان ٧٠ - ٧١ ترغب الأسرى في التوبة وتحذرهم من خيانة الرسول(المجلة)

الذي أخذ بزمام الحديث، وخصهم رسول الله ﷺ به هم الخاصة، بل هم خاصة الخاصة.

وبدأ الحديث أبو بكر - رضي الله عنه- كما هو في أشهر الروايات أيضًا، وفي رواية أن المتحدث أولاً هو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه-، فكان أبو بكر - رضي الله عنه- في حديثه رحمة كله، وكان في شفقته ولين عريكته وسجاحة نفسه ولطف تأتيه(١٩) على قدم الخليل أبي الأنبياء والحنفاء إبراهيم -عليه السلام-، وعلى سَنَن روح الله وكلمته المسيح عيسي بن مريم -عليه السلام-، فأشار بالعفو عن الأسارى، وإطلاقهم بأخذ الفداء منهم ليتقوى به المسلمون على أعدائهم.

ثم تحدث الفاروق عمر بن الخطاب، فكان حديثه يمثل طبيعة المؤمن القوي الأمين، وكأنه شظايا من اللهب تتساقط على رءوس الكفرة الفجرة المشركين الذين كذبوا رسول الله ﷺ، وقاتلوه، وأخرجوه من أحب البلاد إليه، واضطهدوا المستضعفين من طلائع الإيمان وعذبوهم، فأشار بقتل الأسارى جزاء وفاقًا على طغيانهم وفجورهم، فكان في مشورته جاريًا على طبيعته من الشدة في الله، وكان في شدته أشبه بأول الرسل نوح -عليه السلام-، والكليم موسى -عليه السلام-، ولم يتحدث غيرهما سوى عبد الله بن رواحة، فقد أشار بعقوبة لا تتواءم مع سماحة الإسلام لما فيها من بشاعة مفظعة، فأعرض عنه النبي ﷺ، بيد أنه كان لكل من الشيخين موافقون على رأيه الذي أشار به.

---

(١٩) السجاحة بمعنى السماحة. (المجلة)

ولما فرغ النبي ﷺ من استطلاع رأي أهل الشورى قام عنهم دون أن يقضي بشيء حتى دخل بيته ليخلو بنفسه إلى ربه، وظل الناس يدوكون، ويصورون لأنفسهم اختيار رسول الله ﷺ، وبأي الرأيين يأخذ، فقال ناس يأخذ برأي أبي بكر، وقال آخرون يأخذ برأي عمر.

ثم خرج عليهم صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم كلمته الجامعة: "أنتم عالة، فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء" فكان هذا القضاء الحكيم المحكم، ونزلت سورة الأنفال، تقص قصة بدر في مباديها منذ كانت خرجة لملاقاة عير قريش وهي تحمل تجارتهم وأموالهم، إلى أن صارت معركة حامية الوطيس انتهت بنصر الله تعالى لنبيه ﷺ وأصحابه نصرًا مؤزرًا هز عواطف المسلمين بالفرحة السابغة التي أنستهم أن يصبروا مع أعدائهم المنهزمين حتى يثخنوا في الأرض بكثرة القتل والجراحات، وشغلوا بجمع الغنائم واستبقاء الرجال الذين أخذوهم أسرى في أيديهم، فعاتبهم الله تعالى على إرادتهم عرض الدنيا في اشتغالهم بجمع الغنائم وأخذ الأسرى، والنبي ﷺ كاره لصنيعهم هذا، وكذلك خاصة أصحابه كانوا كارهين لذلك؛ كما جاء ذلك صراحة في حديث سعد بن معاذ – رضي الله عنه– وموافقة النبي ﷺ على موقف سعد بن معاذ.

ثم جاء تلطف الله تعالى بالأسرى متوافقًا مع قضاء رسول الله ﷺ في شأن الأسرى الذين وعدهم الله في تلطفه بهم بأنهم إن أظهر الله تعالى علمه للناس بأن الأسرى يضمرون في قلوبهم خيرًا بوعدهم أن يسلموا ويناصحوا رسول الله ﷺ وأصحابه ولا يظاهروا عليهم عدوًا لهم، يؤتهم خيرًا مما أخذ منهم من الفداء ويزيدهم من فضله بمغفرته ما سلف من ذنوبهم؛ لأنه سبحانه غفور رحيم.

وقــد غلبــت روايــات المشــاورة علــى عواطــف أهــل العلــم وتفكيرهم، فاختلف السلف كما يقول ابن حجر في الفتح في أي الرأييــن كان أصوب؟ فقال بعضهــم كان رأي أبي بكر؛ لأنه وافق ما قدر الله في نفس الأمر، ولما اســتقر عليه الأمر، ولدخول كثير منهم في الإسلام، إما بنفسه أو بذريته التي ولدت منه بعد الواقعة؛ ولأنه وافق غلبة الرحمة على الغضب، كما ثبت ذلك عن الله تعالى في حق من كتب له الرحمة.

وأما من رجح الرأي الآخر فتمسك بما وقع من العتاب على أخذ الفداء وهو ظاهر، لكن الجواب عنه أنه لا يدفع حجة الرجحان عن الأول، بل ورد للإشــارة إلى ذم من آثر شــيئًا من الدنيا على الآخرة ولو قل.

وقــول الحافظ ابن حجر في تعليل قول من رجح الرأي الآخر - أي قول عمر - أنه تمسك بما وقع من العتاب على أخذ الفداء وهو ظاهر، غريب جدًا من الحافظ رحمه الله، ويزيد في غرابته تأكيده بقولــه: وهو ظاهر؛ لأننا نعلم يقينًا أن الحافظ يعلم أن أخذ الفداء من الأســرى مشــروع في ســرية عبد الله بن جحش التي لقب فيها بأميــر المؤمنين، وهي قد كانت قبل بــدر العظمى، فكيف يتوجه عتاب على أخذ الفداء من أســرى بدر، وقد قضى به رسول الله ﷺ في بدر الكبرى بعد أن شــرعه الله تعالى لرســوله ﷺ وأحله لأمته في ســرية ابن جحش، وقصتها معروفة مشهرة في القرآن والسنة، وابن حجر بهما عليم.

وقد أغفل ابن حجر المنشــأ الحقيقــي للعتاب وهو - كما قلنا مــرارًا وتكــرارًا - الإســراع في إنهــاء المعركة والاشــتغال بجمع

الغنائم واستبقاء الرجال قبل أن يتم للمنتصرين المجاهدين الإثخان في العدو، وهذا ما لم يرضه قط رسول الله ﷺ ولا أمر به، ولو كان العتاب على أخذ الفداء من الأسرى لكان رسول الله ﷺ داخلاً في المعاتبين مع الذين أرادوا عرض الدنيا وأعرضوا عما يريده الله تعالى لهم من الآخرة وثوابها باعتبار أن إرادة الدنيا هي السبب في العتاب كما هو صريح القرآن الكريم، ولكان مندرجًا مع الذين أرادوا عرض الدنيا، وحاشاه ﷺ من هذا التقول عليه بالباطل؛ لأن هذا محال في حقه ﷺ لمكانه من العصمة.

ولقد أردنا التنبيه إلى هذه السهوة من الحافظ ابن حجر خشية أن يقع فيها أحد من مقلديه الذين تغلبهم عواطفهم على متابعته فيما يرى ويقول. وأصل كلام ابن حجر في اختلاف الناس أي الرأيين في المشاورة كان أصوب تقدمه به ابن القيم في كتابه (الهدي) وابن حجر أخذه واختصره وتصرف فيه دون أن يشير لمصدره، ونحن نسوق كلام ابن القيم لأنه أوفى أداء للموضوع.

قال رحمه الله: وقد تكلم الناس في أي الرأيين أصوب، فرجحت طائفة قول عمر لهذا الحديث - أي حديث مسلم برواية ابن عباس عن عمربن الخطاب - ورجحت طائفة قول أبي بكر - رضي الله عنه-، لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب، ولتشبيه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول

الله ﷺ لأبي بكر أولاً ولموافقة الله تعالى له آخرًا، حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق فإنه رأى ما استقر عليه حكم الله آخرًا وغلبة جانب الرحمة على جانب العقوبة.

ولا يخلو كلام ابن القيم من نحو ما أخذنا على ابن حجر، ولعل السبب في اتجاههما هذا تمسكهما بحديث مسلم وما جرى في شوطه من روايات أخرى.

إلى هنا ننتهي من تسجيل ما رأينا تسجيله من أحداث غزوة بدر العظمى من جوانب منهج الرسالة الخالدة رسالة الإسلام الخاتمة لرسالات السماء، ونحن على ما نشعر به من إطالة رشاء البحث في عرض الأحداث المنهجية التي رأينا إخراجها في إطار هذا البحث في الغزوة المباركة لم نستوعب روايات التاريخ المسطورة في كتب المغازي والسير؛ لأننا لم نستهدف في بحثنا جمع الروايات والأحداث التي وقعت في إطارها، ولكنا استهدفنا إلتزامًا منا في كتابنا هذا عرض الوقائع والأحداث التي تعطينا معالم من المنهج الذي أقام الله تعالى على دعائمه رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ، لتكون كتابًا سرمديًا لهداية الإنسانية في تفكيرها وهي تسير مع الأجيال المتعاقبة في أطوارها الفكرية وأوضاعها الاجتماعية المتوثبة سيرًا سلوكيًا، يجعل من الحياة كلها حقيقة موحدة الوسائل والأهداف في ظل الإيمان بالله ورسوله للنهوض بهذه الحياة إلى آفاق حضارة علمية مؤمنة.

الفهرس

